رواية

محمد زفزاف

المرأة والوردة

مكتبة الأدب المغربي

المركز الثقافي العربي

مكتبة الأدب المغربي

محمد زفزاف

المرأة والوردة

الكتاب

المرأة والوردة

تأليف

محمد زفزاف

الطبعة

الأولى، 2007

عدد الصفحات: 144

القياس: 14.5 × 21.5

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-242-9

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01750507 ـ 01352826

فاكس: 01343701 ـ 961+

www.ccaedition.com

Email: cca@ccaedition.com

محمد زفزاف

المرأة والوردة

رواية

بيني وبين نفسي
حديقة من الحجر
من التين والرماح ومواء القطط
من المسافات وخوار الثيران

بيني وبين نفسي
عالم من العرب
من المجلات والخرائط، آه، يا إلهي
«لا أستطيع أن أتكلم».

أستعين بالمراسيم الملكية
لفتح ثقب غرائزي
لصرف شيك بلا رصيد
لبناء عمارة عالية
في أحلامي
للسقوط في صحراء الحدائق
يا إلهي
«لا أستطيع أن أتكلم».

روى محدثي في زمن غابر ما يأتي:

هذا العصر عصر جمع المال. لا تحاول أن تقلد هؤلاء الأغرار الذين يدّعون ادعاءات بعيدة عن الصواب. وأقول لك إننا محظوظون في أوروبا أكثر مما نحن عليه هنا في الدار البيضاء. هنا تُسيّرنا أقلية بيضاء من المغامرين والقوّادين وبائعي نسائهم. فيبنون الشركات ويستثمرون الأموال. ويطردوننا من المقاهي والمراقص. يترك البوّاب أو النادل الباب مشرعاً في وجه الزبون الأوروبي بينما يقف في وجهك أنت ولا يقول «ممنوع» ولكنه يقول بأدب «معذرة. محجوز». وهكذا فلا مكان لك أو لي في هذه المدينة الكبيرة إلا إذا كنت ذات بشرة بيضاء وتتكلم الفرنسية بطلاقة الباريسيين. وإذا استنجدت بشرطي ضربك على رأسك وقادك إلى المركز حيث تشم رائحة الوسخ والقذارة. وربما كُلفت بتنظيف المركز من قيء السكارى، كل هذا لأن الشرطة أمّيون جهلة، قادمون من البادية. تحولوا من مكانهم وراء الماشية والإبل إلى مكان آخر

وراء الشعب يرفسونه ويذلونه. اسمع لي جيداً. أنا لست ثورياً ولا أي شيء. لا أعرف شيئاً من هذا. ولكني أؤكد لك سبب حبي الكبير لأوروبا. إني أعرفها كما أعرف الحي الذي تربيت فيه. لا تعتقد أني عجوز طاعن في السن ولكني قدّك. كم تقدّر عمري؟ آه. لا تعرف. إذن ثلاثون. ثلاثون سنة. جربت الكثير. إني لا أقبل وظيفة هنا في الدار البيضاء حتى ولو تقاضيت ألف درهم. لأنني هنا أشعر بأن إنسانيتي مفقودة. ولكن هناك تستطيع أن تصير ما شئت، ملكاً أو إمبراطوراً. أي ما شئت. وهناك، لك أن تشاء أو لا تشاء. ولا أحد يشاء في مكانك مثلما هو الشأن هنا. ولا شك أنك تفهمني الآن. هل تفهمني؟ نعم. شكراً. إذن تتبع ما أقوله لك. شخصياً، كنت أعيش هنا وكنت أعتقد أن العالم هو هذا العالم الذي أراه صباح مساء. ولكن الحقيقة غير ذلك. اكتشفت بالحدس فقط، عندما وقفت في البوليڤار بطنجة، أن تلك الأراضي التي تظهر لي عن قرب البحر الأزرق هي عالم محور رائع. اكتشفت ذلك بالحدس حتى قبل أن أصير فوق تلك الأرض. أنا لا أريد أن أحدثك عن حياتي. ولا كيف أصبحت أعيش في أوروبا. لا.. لا أريد هذا. ولكني فقط أتحدث لك ببساطة وباختصار عن شيء آلمني. إنهم لا ينظرون إليك هنا إلا بعين فوقية، تتخيل الواحد كما لو كان إلهاً. ولكنه إذا حدثك تجده بليداً أمياً لا يقرأ حتى جريدة. وعندما ينظر إليك ترهبك نظراته، وكأنه إنسان خطير يقرر مصير الأمم. الرجل

الأوروبي على عكس ذلك. لا أريد أن أحدثك عن حضارة أوروبا، ولا عن المقارنة بين هؤلاء وأولئك. ولكني فقط أريد أن أقول لك إنني أحب أوروبا. ولا أقول لك هذا إلا لأني وجدت لديك نفس الشعور. قلت لك أعرفها جيداً، وإذا كنت تحب المغامرة فهي ميدان خصب لها. إنك هنا لا تستطيع أن تسرق حتى دجاجة. أما هناك فإنك تستطيع بسهولة الحصول على ورقة خبير في السوق الأوروبية المشتركة، وبذلك تستطيع أن تتجول في أوروبا كلها ومعك ما تشاء من الجواهر أو المخدرات، وتستطيع أن تبيعها بسهولة وتعود إلى هنا لتضحك على العالم وعلى هؤلاء الناس اللئام المتكبرين الأميين. وإذا ما تكالبوا عليك تستطيع أن ترشي واحداً منهم، فيخلصك منهم بسهولة.

قل لي. هل ما تزال تتخدر؟ أريد أن أقول: هل ما تزال تكمي الكيف؟ آه يا صديقي! الكيف شيء رائع حقاً. لكن أقول لك حقيقة واحدة أنه سيودي بهذه الأمة كلها. أصبح الشعب كله يتعاطاه لينسى همومه الكبرى والصغرى. نعم؟ ماذا؟ ليس صحيحاً. أعتقد أن العكس هو الصحيح. كل الشباب يتعاطونه. حتى في العائلات يتعاطون ما هو أخطر. إنهم يتناولون المعجون. وأنت تعرف أن المعجون أدهى من الكيف. النساء يتناولن المعجون والرجال يدخنون السبسي. تجول إذا شئت ترى أنواعاً من السباسة مزوقة ملونه في جميع الواجهات وفوق كل الأرصفة. كيف تقول أيها الصديق إن

الشبان لا يتعاطون تدخين الكيف؟ إنك واهمٌ فقط ولا أريدك كذلك.

وعندما وصل محدثي إلى هذا الحد سقط أرضاً. وعندما بحثت عن سبب سقوطه وجدت أن قدمه زلت فوق قشرة برتقالة، وقد جرت العادة ألا تزلّ الأقدام إلا فوق قشرة الموز. فتعجبنا لذلك نحن الاثنين. ثم لا يحدث له شيء. واستمر في حديثه:

أعتذر عن هذا السقوط. هذه أشياء تقع أحياناً ويتعرض لها المرء وهي خارجة عن الإرادة أعود لأقول لك: وجدت ذاتي في أوروبا، وبالخصوص في أمستردام. قضيت هناك أربع سنوات وعشت مثلما يعيش الملوك والأباطرة. هل تعتقد أني كنت أعمل يدي في شيء؟ لا لا. ذاك شيء يستحيل. أربع سنوات لم أشتغل. كنت آكل وأشرب وأرتدي أفخر الثياب وأنكح أجمل النساء. وقد تتساءل كيف فعلت ذلك. الجواب سهل وبسيط. سأقوله لك، فما هو بسرّ أبداً. كنا نتوصل بالحشيشة من النمسا. كان يبعثها لنا إيطالي مقيم هناك وهو بدوره يتوصل بها من بيروت. لم أكن تاجراً ماهراً أو محتالاً. ولكني فقط كنت أود أن أعيش بدمي وأعصابي هذه الحياة التي لم أعشها. هل تعتقد أن الناس هنا يحيون؟ لا. أبداً. إنهم يموتون. أقول لك الحق: الإنسان لا يعيش بالخبز وحده. هناك أشياء أخرى في الحياة يجب أن يعرفها. لماذا يتزوج الإنسان وهو لم يعرف في حياته امرأة مثلاً؟ لماذا

تتزوج المرأة وهي لم تعرف في حياتها رجلاً؟ هذا شيء غير إنساني. كان هذا هو هدفي. في النهار أبيع حصة أو حصتين، وفي الليل أمضي إلى علب أمر بها كلها تقريباً. أراقص فتياتها وأنكح الأخيرة التي تبقى بين يدي. ألا تعتقد معي أن هذه أروع حياة يتمنى المرء أن يعيشها؟ لماذا يفتعل الإنسان أخلاقاً يرغب في طرحا ونبذها. سمّني ما شئت. لكني متأكد من أن أي واحد من هؤلاء الأوباش الذين يمرون أمامك يرغبون في فعل ما فعلت. وهم لا يتورعون لفعل ذلك من أن يقتلوا أو يكذبوا أو يبيعوا أنفسهم. الواحد منهم ما إن يرى امرأة حتى ينسى الدائرة التي تحيط به. هدفه الوحيد هو أن ينكح وينكح حتى يغمى عليه. ويشدد على زوجته في حين أنها تنكح مع الحلاق الذي يسكن تحت شقته أو مع متعلم الفران الذي يأخذ إليها الخبز، أو مع الحلاب أو مع أي كائن له عضو قائم. ألا ترى معي أنهم بلداء وبلهاء؟ تقول إنني أقسو كثيراً. أعتذر إذن. أنت الذي سألتني عن حياتي وها أنا أجيبك. لا أتقن الكلام على أشياء مثل هذه. لكن لا بد أن أحدد لك بعض الحقائق التي تخصك. أنت تمضي شبابك في قبر. هل رأيت قبراً يحيط به الماء من جميع الجوانب؟ إنه هذه الخريطة الكبرى التي أمام عينيك. تسألني إذا كنت جنيت ثروة كبيرة؟ لا أقول كبيرة. لكني أعيش كإنسان على الأقل. زوجتي تدير محلاً لبيع القهوة. هو ملكنا. ألا يكفي هذا؟ كل ذلك وأنا لم أشتغل ولم أعمل يدي في شيء. ماذا تعتقد أني أكون لو بقيت

هنا؟ لا تدري. دعني أجيبك بنفسي. كنت أصير جيفة تأكلها الديدان في شارع من شوارع هذه المدينة. لكني حاولت أن أكون رجلاً بالرغم من كل شيء. اكتسبت بعض التجربة التي أنضجتني. لا تعتقد أن وراء البحر رجال. من يقول ليس هناك رجال هو كذاب ويستحق الصفع. هكذا.. (يصفع الفراغ.) أوروبا هي التي أخرجت الرجال وستخرجهم. المرأة هناك تساوي رجلاً هنا. دعك من تلك الوحشية التي يحكي عنها الذين حاربوا في صفوف فرنسا ضد ألمانيا وحرروا باريس. أولئك المغاربة حقاً لم يكونوا سوى وحوش. إذا أردت الدليل فها هو: كان هؤلاء الوحوش يغتصبون بكارة فتيات في الثانية عشرة وكانوا يعتقدون ذلك شجاعة. أية شجاعة هذه أيها الصديق؟ تقف أمام فتاة صغيرة ـ وكأن النساء انقطعن من الدنيا ـ وتغتصبها. هل هذه شجاعة؟ مع ذلك فهم يتحدثون عن كونهم رجالاً. أين رجولتهم وهو يبعثون نساءهم وبناتهم إلى بيوتات الأقلية الأوروبية هنا، ليمسحن لهم أحذيتهم، ويغسلن ثيابهم الداخلية التي تعاف نساؤهم غسلها. إنهم يعتبرون ذلك شيئاً طبيعياً. ومع ذلك، عندما تتحدث إلى أحدهم يقول إنه رجل. عفواً، أرجوك. تقول إنني أقسو عليهم. لن أعاود الكرة. لكن دعني أكمل حديثي. هل تدري أيها الصديق (يسعل) أنه وقعت لي حادثة طريفة. ألقوا عليّ القبض في أمستردام وأدخلوني السجن حيث قضيت ستة أشهر. وعندما غادرت السجن نزعوا مني جوازي وأرسلوني

إلى هنا. كانوا يعتقدون أنهم حكموا عليّ بصفة نهائية بالبقاء هنا. (يضحك) ألا تعتقد معي أنهم سذّج. خمّن ماذا حصل؟ عدت فوراً عن طريق سبتة. قمت بذلك كما لو كنت آكل شوكولاطة. لكن المسألة كانت عويصة في الحدود الإسبانية الفرنسية. أنا بلا جواز فكيف أجتاز الحدود؟ فكرت وفكرت ملياً. وما عليّ سوى أن أشتري خريطة المنطقة عند هانداي. وهكذا أيها الصديق مشيت ثمانية كيلومترات على الأقدام. ثم وجدت نفسي أجتاز الحدود ورجال الحدود. وانطلقت بعدها في فرنسا طولاً وعرضاً. ومنها إلى أمستردام. الإنسان يجب أن يتوفر على شجاعة قوية. إذا كنت شجاعاً تستطيع أن تدير أوروبا بأكملها على إصبعك. وبعد ذلك؟ تسألني عما حصل؟ لا شيء. الأمور سارت ببساطة. رشوت موظفاً بسيطاً وحصلت على جواز جديد غيّرت فيه اسمي المدنس. ومهما يكن فأنا لا أعرف في أمستردام وفي باريس وفي بروكسيل سوى باسم «جو». ما رأيك؟ أليس اسماً رائعاً؟ أطلقته عليّ الزوجة، ثم احتفظت به فأنا لا أُعرف سوى بهذا الاسم. إذا أتيت إلى هناك فمر بي. ستجدني في أمستردام، وسأقدم لك أية مساعدة. يجب أن تفكر في بناء المستقبل، لشاب مثلك يحمل أفكاراً مثل أفكارك لن يكون له مستقبل هنا. لا في الدار البيضاء ولا في طول المملكة السعيدة وعرضها. إني أنصحك كصديق أن تركب المغامرة. لا تخف. كن شجاعاً.

ثم توقف محدثي عندما وصلنا إلى ساحة مرسى

السلطان. نظر حواليه في المقاهي كما لو كان يبحث عن شخص بعينه. تنخم وسعل. وخطا خطوتين بعيداً عني. ثم قال: «أعتقد أني سأراك في المساء. أين تكون؟» فأخبرته ثم ودّعني. ومن ذلك اليوم لم أر ذلك الصديق. ربما كان في أمستردام أو باريس أو بروكسيل أو شتوتغارت. من يدري؟ اختفى ولم يعد هناك أمل في أن أراه إلا بعد سنوات. لكني كنت متيقناً من شيء، هو أنه نفخ فيّ روحاً جديداً حتى كنت راضياً عن نفسي.

شعرتُ بألم لم أعرف مصدره، ولم أحاول أن أعرفه. ارتخيت فوق الكرسي وحاولت أن أطلب شيئاً آخر غير القهوة السوداء السريعة. لرابع مرة أشرب القهوة هذا اليوم. أحياناً أشعر بأن القهوة تضايقني وتشد أعصابي شداً، فأشرف على الانفجار. الانفجار ضد نفسي وضد كل شيء. فكان ضرورياً أن أطلب هذه المرة منبهاً، لا بل مسكّناً. صفقت للجرسون ليأتيني ببيرة شربتها في الحال. وأحسست بقليل من الارتخاء والدفء في هذا الجو الخانق. ولم تعد أعصابي متوترة الآن مثلما كانت عليه فيما مضى. لكني في الواقع شعرت بأني أضيّع وقتي في لا شيء. فعوض النزول إلى البحر، أو اللجوء إلى غرفتي في الفندق، عرضت نفسي على بعض المارة القلائل الذين يمرون أمام المقهى. فعلت نفس الشيء في الأيام السابقة حتى مع الفتاة الألمانية التي تعرفت عليها في البايبرز. كنت أتركها تنزل إلى الشاطئ وحدها لتسحم ولتغير جلدها الأبيض بجلد آخر يشبه جلدي. قالت وهي تشير إلى ذراعي:

ـ أريد أن يصير جلدي مثل هذا.

وكانت تعني بـ«هذا» جلدي. وعندما قالت ذلك أمسكت ببعض الشعيرات وجذبتها بقوة حتى شعرت بدبيب كهربائي في كل جسدي. اقشعررت وقلت:

ـ أوه، ماذا تفعلين؟

ـ أريد أن يصير جلدي مثل جلدك ثم نأخذ صورة معاً.

إلا أن هذه الفتاة التي لم تصبح في مثل لوني ولم تأخذ معي صورة اختفت بصورة نهائية لأنها أنهت عطلتها وعادت لتستأنف العمل كضاربة على الآلة في إحدى الشركات الكبرى بألمانيا الفيدرالية. كنت أتركها تنزل إلى البحر وحدها، وأحياناً تعود بصديق جديد تعرفت عليه تقدمه لي ثم تعانقني وتقبّلني أمامه وهي تقول له وداعاً. وقتها كنت أشعر بالذنب. هل أنا عجوز؟ هل أنا معطوب حتى أخفي إحدى عاهاتي عن الناس. لا. لم أكن معطوباً جسدياً بل نفسياً. أتخيل جسمي نحيفاً ضئيلاً جائعاً. لكنه على العكس، كان موضة الصيف. النحافة كانت هي الموضة. مع ذلك، لم أعط لنفسي الجرأة حتى أنزل إلى الشاطئ مثلما يفعل هؤلاء الناس القادمون من أطراف الدنيا. تسمع جميع اللغات بالقرب منك ولا تميز أية لغة هي. فالحركات الميمية هي السبيل إلى التعارف.

عندما أحسست بانفراج داخلي بدأت أتذوق وأستعذب الموسيقى المندفعة من داخل المقهى. بدأت أوقع بقدمي

الاثنتين لحناً إلى حد ما منفراً ليست له أية علاقة بالأغنية الإنجليزية المنبعثة من الجوك ـ بوكس. اللحن مألوف عندي، لكني لا أستطيع أن أتتبعه. الموسيقى عنيفة وصاخبة في هذا الجو الحار. هزتني رغبة عارمة في أن أرقص. وبالفعل، داخل المقهى، كانت امرأة في أرذل العمر تراقص شاباً إسبانياً. لا تتقن الرقص، لذلك ذهبت وجلست عند طاولتها أمام زجاجات بيرة كثيرة ومتنوعة. لم يستطع الجرسون أن يخلص الطاولة منها. ظل الشاب يرقص وحده بحركات أنثوية مغرياً العجوز (التي يبدو أنها تحب السحاق). هل هي أمه؟ عشيقته؟ لا أدري. الاحتمال في كل الأحوال ممكن.

أعدت الثقة بنفسي وأخرجت سيجارة من جيبي. العلبة فرغت وبعد قليل سأضطر لشراء علبة أخرى. ذلك أمر عسير. كل لحظة علبة وبيرة وقهوة إلخ. ضربت بكفيّ للجرسون مرة أخرى فسكب البيرة الثانية أمامي. وأخذت أشرب بتلذذ. الهواء راكد لكني لم أعد أعترف به. انتظرت طويلاً إلى أن تلحق بي سوز. التقيتها أمس لأول مرة. لم يكن اللقاء غريباً ولكنه طريف. تركت ألان وجورج في المقهى الصغير الضيق الذي يوجد في منحدر نحو البحر. الحرارة مثل الآن. أردت أن أشم قليلاً من الهواء لأن قدميّ وجسدي ورأسي، كل هذه الأشياء كانت ثقيلة تعاني من إرهاق لا حدّ له. إرهاق أثقل من الإرهاق الذي شعرت به قبل الآن. انحدرت جهة البحر، وفكرت أن أنزع عني ثيابي قبل أن أبلغ الشاطئ. كان المايوه

تحت البنطلون. لكني فكرت: «عيب.. عيب جداً.» لم يفكر الناس في هذا العيب الذي فكرت فيه. النساء يتمشين في بيكيني شفاف تظهر منه الأعضاء وشعر الأعضاء وتشكيل الأعضاء. الرجال الحقيقيون والرجال المستعارون كذلك. لا أحد يفكر في العيب. غير أنه كان موجوداً عندي. تخيلته فقط وعانيت منه. أول أمس رأيت شاباً يفعل ما أفكر به الآن. انعزل في زاوية ونزع بنطلونه وقميصه. طواهما تحت إبطه وانحدر جهة البحر. لم يكن ينتعل حذاء. لذلك سهل عليه الأمر. أما أنا فقد أمسكني إحساس لاإنساني لدى مجرد التفكير في الأمر. أول أمس انشرحت وقلت: «آه. هذا شخص يصلح لي. سيد نفسه. لا عُقَد ولا أي شيء.» وعندما قلت ذلك، رأيته ينظر إليّ دون أن يعيرني أدنى اهتمام. بل ذهب ونظر في الواجهة وسوّى شعره الأشقر المنفوش. سوّاه بيده أولاً، ثم لم يكتفِ بذلك. أمسك البنطلون وفتش في جيوبه، أخرج المشط وأخذ يمشط في حربة تامة. تركت الشاب وانحدرت نحو البحر. وعندما أشرفت على الشاطئ بدا لي الناس مثل لا شيء وهم عراة. قلت: «لماذا لا يفعلون ذلك في حياتهم العامة. يتعرى الإنسان عندما يشعر بالحرارة». أضفت: «البحر ليس كيف كيف. البحر شيء والحياة الأخرى شيء آخر. هنا مراقبون. لا يستطيع الإنسان أن يفعل شيئاً غير أن يتعرى.» أشفقت على الناس، وفي الواقع كنت أشفق على نفسي. لماذا لا أفعل

مثلهم وأستريح. آه. هناك في العالم أناس يشبهونني. عددهم كثير. وتذكرت على سبيل المثال صديقيّ الفرنسيين ألان وجورج. لم أرهما قط ينزعان عنهما ثيابهما مع أن لهما جسدين جميلين. ظللت واقفاً. ثم بدا لي السلّم الحجري الذي يؤدي إلى تحت، إلى الشاطئ، طويلاً ومرهقاً. وقررت أن أعود لآخذ معي جورج وألان إلى تحت. عند ذلك نرى إذا كان في الإمكان الاستحمام ولو في مكان خلي من الناس.

عدت أصعد المنحدر. تلاقت نظراتي إذذاك مع سوز. نظرت من خلف نظارتيها العريضتين الواسعتين. بدأت تنظر، تنظر. أثارت انتباهي. كانت تنظر وقد أصبحت خلفي. توقفت. ما تزال تنظر. أشرت بيدي فتوقفت ثم جاءت:

ـ هللو. إنجليزية؟

ـ لا.

ـ تشربين شيئاً؟

ـ نعم.

مشينا جنباً إلى جنب. ابتسمت. لم يكن ذلك بالنسبة لي مغامرة. الهواء راكد والفتيات يحمن مثل الفراشات في الحقول دون أن يصطادهن أحد. أخذتها من يدها. ارتعشت وأرخت كفها التي عرقت في كفي. ارتعشت أيضاً ولم نتكلم. غير أني بدأت أفقد قليلاً من قلقي. رأيت الشاب ينحدر ورزمة ثيابه تحت إبطه. نزل نحو الشاطئ وأثار انتباهي في الوقت

الذي لم تلتفت له سوز. فالأمر عادي بالنسبة لها. وأخرجت علبة السجاير سلطاس من شدة الانفعال. قدمت لها واحدة:

ـ تدخنين؟

ـ نعم. لكن في الشارع لا. الطبيب يقول سيجارة في الشارع تساوي مائة. يجب أن تحذر.

لم أهتم بكلامها أو ربما لم أفهم ما قالت. هززت برأسي وتنفست بعمق. حاولت أن أفتح خياشيمي وأعبّ كل الهواء البارد النقي. لكنه لم يكن نقياً. ليست هناك ضمانة لأن يكون.

قالت سوز:

ـ أين نذهب؟ نشرب هنا؟

ـ لا. صديقان فرنسيان ينتظرانني فوق. قلت.

ـ أين؟

ـ هناك، فوق.

ـ طيب. نذهب إليهما.

هززت برأسي وأخفيت ملامحي. ألقيت بالسيجارة التي لم أنهها عندما وقفنا عند باب المقهى. فتشت بعيني داخل المقهى الذي يشبه رواقاً ذا بابين. أحدهما عادي والآخر تبلغه بعد أن تصعد درجاً.

قالت سوز:

ـ أين؟ هنا؟

ـ نعم. لكنهما اختفيا.

ـ يمكن أنهما ذهبا.

ـ طبعاً، ذهبا. ذلك لا يمنع من أن نشرب شيئاً. تفضلي.

جلسنا في الزاوية وطلبنا زجاجتي كوكا كولا. لأول مرة نظرت جيداً في وجه سوز. نظرت في وجهي وعينيّ. نظرت بدوري في عينيها. ظللنا صامتين وتبادلنا النظرات مراراً. وأخذنا نتكلم ببالغ المجاملة. ثم اعتذرت عن اللقاء اليوم. ذهبت لملاقاة أخيها وصديقته.

عندما شربت البيرتين انتعشت وفكرت في مجيء سوز. لم تثر اهتمامي أمس جيداً ولكنها لطيفة. تأخرت قليلاً لذلك أشعلت سيجارة جديدة. كانت الموسيقى ما تزال تنبعث من الداخل والشاب ما يزال يغري العجوز بالرقص. وزجاجات البيرة تتوالى على الطاولة لتحل محل زجاجات أخرى فارغة. تحسست جيبي. هناك رغبة ألحت عليّ في إفراغ جيوبي مقابل إنقاذ نفسي. لكن جيبي أقوى من نفسي. الجيب هو الذي يقرر مصيري. وإذا لم أبالغ فالجيب هو الذي يعطي معنى لحياة الإنسان. وأكثر من ذلك، فالجيب هو الكرامة وهو الاحترام، هو الوضعية وهو المعنوية. لا أريد أن أبالغ ولكن الناس أساؤوا فهم حقيقة بعضهم البعض. وظلت تلك

الأخلاق الخاصة المتخيلة موجودة فقط في الكتب مثل «الشريف هو شريف النفس». و «الحكيم هو من تجاوز ترهات الدنيا». هذه كلمات تصلح لأن تعلَّق هنا في متاحف يتفرج عليها الناس إذا كان لديهم قليل من الوقت، ويقرؤونها كما لو كانت تنتسب إلى عقلية أناس عاشوا في زمن قديم. وبالفعل، هذه الحكم قديمة، وضعها أقدمون في عصر لم يكن الإنسان فيه ينزل إلى البلاج بالرولز أو يذهب إلى مرقص بالمرسيديس. إن متطلبات الحياة كثيرة، وعندما لا يلبيها الإنسان ينتظره المتحف أو دار العجزة، هناك يستطيع أن يروي عن حياة غيره لا عن حياته.

عندما فتشت في جيبي لم أجد أنه يستطيع أن يعطيني كرامة أكثر. كرامتي إذن محدودة. لا أستطيع أن أتحرك إذا لم تتحرك يدي في جيبي. حولت عيني داخل المقهى. رأيت الشاب قد أصبح في حالة مثيرة للانتباه. العجوز أكثر منه. تحولت المساحيق إلى أصباغ مختلفة كلوحة تجريدية. كانت ضحكتها بدائية حيوانية. وتخيلت أن لها صوتاً مثل زعيق القرود. بعض الزبائن يهتزون ويصفقون للشاب لكنهم يشربون على حسابها. ترفع يدها وتشير بسوارها الذهبي في وجوههم جميعاً. إنها تشتريهم وتغريهم أكثر باحترامها. الثمن بخس. لا يكلفها ذلك شيئاً. بيرة، بيرتان ويأتي الاحترام ذليلاً يجرجر نفسه كالكلب.

استعدت وضعي وأرخيت قدمي تحت الطاولة فتحركت

الزجاجات الفارغة وأحدثت طقطقات. رأيت القطار الذي يخترق طوريمولينوس قادماً من بعيد دون أن يصفر. ليس ذلك من عادته. سمعت هديراً قوياً. ثم توقف القطار بعيداً وغادره بعض الركاب حاملين فوطات وشمسيات. قلت: «الاستحمام حتى في هذا الوقت. شيء غريب». أعدت: «ليس ذلك بغريب. الظهر والحرارة». وبالفعل كانت الحرارة شديدة. وقفت ونفضت عن نفسي غباراً وهمياً. غادرت الطاولة دون أن أترك بقشيشاً كما يقول المصريون. لم أعرف ماذا أفعل. سوز لم تأتِ بعد. وقفت عند حافة السكة الحديدية وبدأت أفكر دون أن أعبأ بأحد. بعد ذلك، وجدتني أنحدر بلا أدنى رغبة في الطريق المؤدية إلى البلاج. كانت بعض الواجهات قد بدأت تعلن عن نفسها. وفتحت المتاجر أبوابها مستقبلة الصاعدين من الشاطئ السفلي. وفي الواقع، لم يكن هناك صاعدون ولكن كان هناك استعداد للحركة المسائية غير العادية التي تحصل كل يوم. مشيت ببطء. أدخلت يدي اليمنى في جيبي وأخرجت سلطاس لأدخن، وتذكرت: «الطبيب يقول السيجارة في الشارع تعادل مائة. يجب أن تحذر». لكني لم أحذر، وأشعلت واحدة وبدأت أستنشق الهواء والدخان وكل شيء عمداً. برغبة أكيدة وبإصرار.

نفحنا هواء خفيف ففتحت القميص عن صدري، بينما فعلت سوز مثلما فعلت، فكشفت عن جزء من نهديها الكبيرين. وضعت ذراعها عند خصري وحاصرتني بقوة بحيث لم أستطع أن أجد متنفساً. كنا نمشي ببطء وسط الزحام. قليلون هم الذين يفعلون مثلنا يتعانقون بقوة بقوة بقوة أمام الملأ. (بعد ذلك سوف أعرف أن هذا بالنسبة لها لم يكن سوى اغتنام فرصة لن تتكرر). كنا نمشي ببطء ولم يعرنا أحد أدنى اهتمام. حتى أنهم لم يكلفوا أنفسهم إفراغ الطريق لنا (ليس ذلك شرطاً ـ فكرت فيما بعد). نتضارب بالأكتاف ونقول عفواً مع ابتسامة باردة جاهزة يهيئها كل واحد منا لهذا الغرض وفي فرصة مثل هذه. مشينا دون أن نعرف لماذا. وإلى أين؟ (لم يكن ذلك ضرورياً). لم نكن نتكلم. أحياناً ننظر في أعيننا فتضمني إليها بقوة (لأن الفرصة لن تتكرر) دون أن أستطيع أن أفعل الشيء نفسه. لست أدري لماذا. هناك عطب داخلي يمنعني من ذلك. ثم، فوق كل شيء، ليست

لدي رغبة. آه! يا إلهي! متى كانت لدي الرغبة في أي شيء؟ هنا سر العطب: لا أرغب في شيء ولا أرغب عن شيء. أعيش فقط وأخطط كل شيء بلا مبالاة. (يحدث أو لا يحدث. هذا غير مهم. كل شيء ممكن وكل شيء غير ممكن).

أدرت وجهي لسوز فنظرت فيه وأعطتني قبلة على خدي. لم أعرف ماذا أقول لكني في الأخير قلت:

ـ الزحام شديد.

قالت بابتسامة ودود وبمحاباة:

ـ نعم. هذه أول مرة أزور فيها طوري. كنت أتصوّر ذلك.

ـ شخصياً كنت أتصور أكثر من هذا.

ـ لا يكفي هذا. الحرارة والزحام شيء مقلق.

ـ نعم مقلق جداً.

صمتنا وأحكمت شد خصري بقوة. وعندما لم أفعل مثلها انسحبت وأمسكت بذراعي. وضعتها خلف خصرها، فهمت إذذاك ماذا كانت تعني. تركت يدي راقدة فوق خصرها. ثم أمسكت ثوبها وشعرت أن تحته جسداً دافئاً راغباً في الانتعاش. تركت الثوب ينزلق من بين أصابعي. ارتعشت ووافقت على الانحدار إلى تحت. مشينا في المنحدر. ثم توقفت سوز عند الواجهة وأخذت تتأمل أشياء من الصناعة

التقليدية. رأينا تمثال دون كيخوتي مصنوعاً من الأبنوس. قالت:

ـ أوه. رائع. دون كيخوتي دي لامانشا.

ـ نعم.

ـ فوق حصانه.

ـ نعم.

بدأت تنظر ثم انحنت بنصفها الأعلى حتى لامست نظارتاها زجاج الواجهة. وقفت وأشارت بإصبعها:

ـ رائع أليس كذلك؟ ما اسم حصانه؟

ـ حصان من؟

ـ دون كيخوتي.

ـ من هو دون كيخوتي؟

ـ دون كيخوتي دي لامانشا. دي لامانشا دون كيخوتي. حصان دون كيخوتي.

ـ من دي لامانشا دون كيخوتي. حصان دي لامانشا دون كيخوتي. حصان؟

ـ دون كيخوتي حصان؟

ـ آه نعم. لا أدري.

ـ سأشتريه غداً.

ـ طبعاً.

كنا ما نزال ننحدر، ووقفنا أمام أوتيل. برز ثلاثة شبان بآلات موسيقية شعبية وفي ثياب لمصارعي الثيران. وسع لهم الجمهور الساحة. بدأ أحدهم يدور على نفسه ويعزف على ناي معدني، وضمتني سوز بقوة بحيث لامست مؤخرتها ما بين فخذي. ظلت في وضعها طويلاً وهي تكرر «أوه.. رائع. رائع. نايس، فيري نايس». وانطلق شاب ثالث في الغناء فأمسكت ضحكة كادت تنطلق. أثرت انتباه سوز فابتسمت واستمر الشاب في الغناء وأخذ يدور على نفسه. يدور، يدور، رافعاً إحدى يديه وملوحاً بها في هواء المساء الخفيف. قهقهات كثيرة تنتشر في الفضاء المسائي الخفيف. ولامست عجوز أمريكية آلة التصوير المتدلية عند كتفيها. نظرت باشتهاء إلى الشاب ووشوشت للعجوز الذي يرافقها. ما زالت سوز واقفة بين فخذي (فيما بعد اكتشفت أنها لا تحب أن تفعل نفس الشيء في الفراش.) لكن الحرارة قوية في نصفي الأسفل وركبتاي فيهما تنمل لذيذ.

ارتفع الصوت واتسعت الدائرة وقهقهت العجوز ولمع ضوء آلتها في وجه الدائرة. أخذ الشاب يدور وينظر إليها بينما الآخر صاحب الناي يرفع رأسه إلى الأعلى ويعزف لأرواح بعيدة في الليل. أدركت بالبديهة أن عينيه تتركزان بوضوح على كل سائحة مبهورة. اتسعت الدائرة فغيرت سوز وضعها. بقي التنمل في ركبتيّ بينما اختفت الحرارة عند العانة. صاح صوت من الخلف: «خيطانوس». وأخذ يردد الصوت نفس

الكلمة: «غجر غجر غجر». وعندما سمع الشبان الثلاثة الكلمة ارتفع نشاطهم وظهرت لي سلسلة ذهبية في يد أحدهم. لكنها اختفت وراء الثوب الذي يغطي كفيه. دخل الرجل الذي يصيح «خيطانوس» وسط الدائرة. بدأ يرقص رقصاً لا يتلاءم مع اللحن. دار على نفسه وحاول أن يقلّد الشبّان الثلاثة. توقف العزف فصار الهواء بارداً. اتجه أحد الشبان إلى المنفضة الزجاجية السميكة. دسّ الرجل الذي كان يصيح «غجر» يده في جيبه وأخرج حزمة من الدولارات. وضع دولاراً في المنفضة. أخذه الشاب ودسّه في جيبه في حين ترك المجال لقطع نقدية معدنية تتساقط في المنفضة. أخرجت العجوز قطعاً معدنية كثيرة، صفراء نحاسية، وبيضاء فضية. وضعتها في المنفضة ولامست آلة التصوير من جديد. وقف الثلاثة في صف واحد وقاموا بحركات بهلوانية فأخذت العجوز لهم صورة. انسحب أحدهم فتبعه الآخران ودخلوا إلى المقهى ليستمروا في اللعبة. أمسكت سوز من يدها. وقالت عفواً لامرأة صدمتها.

حاولت أن أتنفس بعمق شديد وبلهفة. الهواء خفيف والزحام كثير. بدأت الموسيقى تنبعث من مختلف الأزقة ومن مختلف العلب الليلية. ظلّت سوز تحاصرني دون أن نتكلم. أخيراً تكلمنا كلاماً غير مترابط ليست له أية علاقة، بعضه ببعض. على كل حال نستطيع أن نملأ الفراغ بأي شيء. بدأت كلمات تخرج وتتطاير في الهواء مثل «الزحام شديد»،

«الجو رائع»، «الليل جميل» إلخ. مشينا ببطء شديد وصرنا منعزلين عن الناس ثم لم نعد داخل الزحام. أصبحنا منفردين. رأينا آخرين منفردين: نساء ورجالاً. نساء ونساء. رجالاً ورجالاً. لكن لم يكن هناك أطفال وأطفال. وقعت يدي بالصدفة على مكان حسّاس في جسد سوز. ارتعشت وضمتني إليها بقوة. قلت:

ـ إلى أين؟ الظلام هنا.

قالت وهي تنفصل عني لتغير وضع جرابها (كان لها جراب من الكتان بدل حقيبة اليد):

ـ الظلام حقاً لكننا لن نذهب بعيداً. إن طوري صغيرة. سننزل مع الدرج الحجري ونشم كثيراً من هواء البحر فوق المقاعد.

ـ أين؟ هنا؟

ـ نعم. وقبل أن نبلغ الفنادق. هناك مقاعد خشبية للعموم.

وافقت بابتسامة دون أن أفعل شيئاً آخر. أصبحنا وسط الظلام عند السلم الحجري. رأيت شخصاً ثملاً في الظلام وجماعة تختفي عند المنحرف. أيضاً، رأيت الضوء موزعاً من بعيد على مسافات. لكن المصابيح لم تكن قوية إلى الحد الذي تضيء معه كل هذا الظلام والسلم الحجري والمقاعد الخشبية. لم تكف الضوضاء بينما ظلّت الموسيقى تأتينا من

فوق متدحرجة مع المنحدر. تخيلتها كذلك: كرات صغيرة متدحرجة أو حبيبات لا تُرى تكوّن في مجموعها هرمونيا غريبة، هرمونيا فيها الكثير من رائحة الغربة والليل والبحر. أيضاً، تخيلت الموسيقى تحمل رائحة نباتات بحرية. تشممت كمن يشك في شيء. انتبهت سوز وسبقتني إلى تحت. اختارت المقعد الأيمن. وفي الواقع لم يكن هناك اختيار لأن المقعد الثاني ليس شاغراً. رأيت فتى كثيف الشعر وفتاة ملتصقين يدخنان. يتبادلان السيجارة ذات الرائحة الخاصة. قالت سوز وهي تلصق جرابها بمتكأ المقعد:

ـ إنهما مثلنا. مثلنا إنهما.

قلت وأنا أنظر إليهما:

ـ اسمعي لهجتهما. أميركيان.

ـ إنجليزيان. أنت لا تميز بين الأميركي والإنجليزي والإنجليزي والأميركي والأميركي والإنجليزي والإنجليزي والأوروبي إلخ. أليس كذلك؟

بالفعل لم أكن أستطيع، فمعلوماتي في الإنجليزية لا تسمح بذلك. فقط أميز بضع كلمات. وقف الشاب وسار في الظلام. اختفى لحظة ثم عاد بسيجارة أخرى مشتعلة ذات رائحة غريبة. قالت سوز:

ـ مخدر!

ـ نعم. مخدر لأني لا أعرف سيجارة بهذه الرائحة

ولذلك فهو مخدر لأنه مخدر ولأنه ليس هناك سيجارة. . . بهذه الرائحة فهو مخدر.

ـ نعم.

وقفت الفتاة في تثاقل. قصيرة القامة بلا جراب ولا حقيبة يد. وصعد الفتى إلى أعلى السلم الحجري ووقف هناك في انتظارها. ظلت هي تنفض شيئاً عن سروالها. سمعنا صوت بنطلونها العريض عند القدمين. أمعنت في ضربه بيدها. مضى الشاب واتجه من حيث تأتي الضوضاء. تبعته الفتاة واختفيا بصفة نهائية. لم تكن سوز تتبعهما بل كانت منشغلة بالتفتيش عن جرابها. أخرجت علبة «كامل» وأشعلت سيجارة واحدة دون أن تقدم لي واحدة. قلت أنا بلهجة الرافض:

ـ أفضل سلطاس.

ـ لكنها سوداء قوية.

ـ ندخن واحدة. ذلك رائع، هل جربت؟

ـ لا.

بدأنا نتبادل السيجارة وكنت أفكر في الفتاة القصيرة وفي الشاب. تركها دون أن يهتم بوجودها خلفه (يستطيع الإنسان أن يتأكد من أن العلاقة بينهما ـ قد تكون ـ تافهة إلى حد بعيد ـ في الدار البيضاء ـ عند الكورنيش ـ رأيت فتاة في حجمها ـ تخرج لي من بين نباتات كثيفة فوق المسبح ـ قالت ـ أعطني درهمين ـ قلت ـ لا أملكهما ـ أنا مثلك ـ كنت جالساً إذذاك

على مقعد حجري في الظلام ـ أيضاً ـ قالت ـ تأتي معي ـ قلت بلا تصميم ـ لا ـ وعندما لفظت كلمة لا خرج شاب طويل ذو شعر طويل من بين النباتات وقال لها ـ تعالي إذن ـ عانقها وجلسا إلى جانبي فوق المقعد الحجري الطويل المجاور ـ أخذ يقبلها ثم نام فوقها ـ سمعت بلك بلك بللك بلللك فانسحبت في الظلام وتركتهما.)

وقفت سوز وذهبت إلى حافة بعيدة ومدت ذراعيها ورسمت الصليب بجسدها في الليل. تركت ذراعاً تنزل إلى جانبها بينما بقيت الذراع الثانية أفقية بجهة الشمال. آه يا إلهي. لم أكن أُميز في الواقع بين الشمال والجنوب. تمددت الذراع الثانية وتمشت بخطوات بطيئة في الوقت الذي تمددت فيه أنا فوق المقعد. لامس رأسي جرابها المتدلي فأزحته بيدي. وضعت رجلاً فوق رجل وأنا أدخن آخر ما يمكن تدخينه. وبدأت النار تقترب من شفتي. عادت سوز ووقفت عند رأسي ورسمت الصليب مثل المرة الأولى في الظلام. قلت لها: «ابقي هكذا..»

تحركت وهي تضحك. قالت:

ـ لا.. مثل ميت. فظيع حقاً. حقاً فظيع. لا أريدك أن تموت. تموت لا، حقاً. فظيع. تموت.

ـ لا، لن أموت. ابقي في وضعك. ثم إننا لا نموت على طريقتكم.

ـ ماذا تعني؟

ـ بالصليب.

ـ أنا ملحدة لم أُعَمَّد. هل تُعَمَّدون؟

قالت ذلك ثم أنزلت ذراعيها إلى تحت. قلت وأنا أجلس:

ـ لا.. لا نعمَّد. هذا غير ضروري. أنا أيضاً ملحد لم أرَ في حياتي ما بداخل المسجد. أبي وأمي كذلك. رغم أنهما متعصبان. وإذا سمعني مسلم الآن يقتلني.

ـ متعصبان؟ من أجل ماذا؟

ـ لا شيء. لا يعرفان. إنهما أميان. متدينان بالغريزة كالحيوان.

جلست سوز وفتحت قميصها عن صدرها في الليل. برز نهداها الكبيران بلا سوتيان. وضعت يدي على صدرها فاقتربت مني وقبلتني. أرخيت يدي بين فخذيها ولم أعد أسمع الضوضاء. (كان مثل السلحفاة.) بدأت الأصوات شيئاً فشيئاً تتضخم. هناك حوار يقترب من آذاننا. افترقنا في حين ظلت أيدينا وسيقاننا متشابكة والسلحفاة منعزلة. مرّ الحوار من تحت إلى فوق وأصبح وسط الضوضاء فلم نعد نميزه. أعدنا الكرة، أعدنا الكرة، أيضاً كذلك، أعدنا الكرة، أيضاً، أعدناها فارتخت سوز نهائياً بين يديّ. رفعت رجليها عن الأرض وأمرتني أن.. أترك لها مكاناً إلى جانبي. وتزحزحت

قليلاً من مكاني. شعرت بصلابة المقعد. فعلت سوز مثلما فعلته قبل لحظة: تمددت على ظهرها. ووضعت رأسها على فخذي وجعلت من رجليها زاويتين متوازيتين متساويتين. وضعت كفي فوق جبهتها التي برزت ولمعت مثل مصباح بعيد في الضباب. قمت بنزع النظارتين عن عينيها. تغيرت نفسياً قليلاً. قالت: «أعدهما». لكني لم أفعل وحاولت أن أضعهما. تدلت النظارتان فوق أرنبة أنفي ثم فوق شفتي. وتخيلت نفسي في وضع مضحك جداً. نظرت إليها فوجدتها قد أغمضت عينيها وهي تتنفس برتابة. مدت يدها ببطء شديد وبحذر وهي ما تزال تغمض عينيها. أحسست بكفها دافئة على بطني تحت القميص. أمسكت بعض الشعيرات القليلة التي تمثل حبلاً طويلاً إلى الصدر. ظلّت تفعل هكذا وكان رأسها ثقيلاً فوق فخذي. حركت فخذي وفعلت مثلها. وعندما سمعنا كلاماً توقفت يد سوز فوق بطني وظلّت متجمدة في مكانها. لكن عينيها استمرتا مغمضتين. صعد جماعة من الرجال الشقر والنساء الشقراوات الدرج الحجري لكنهم لم ينتبهوا لنا. ثم حركت يدي فوق صدرها. دلت رجليها إلى الأرض وضمتني إليها. وعندما التصقنا من جديد قلت لسوز:

ـ سوز. سو. .

ـ نعم. ن. .

ـ نذهب إلى الحفير عند الحافة، الحافة عند الحفير، نذهب. .

مانعت أولاً ثم انفصلت عني ومشت ببطء تحت الدرج الحجري. رجعت وقالت:

ـ الفنادق تحت مضاءة. الضوء ضئيل. هناك مدخل غريب مثل الحديقة.

قالت ذلك وهي مبتعدة عني. ثم ذهبت مرة أخرى إلى الحافة ورسمت الصليب بجسدها. ذراعاها أفقيان ورأسها متدل جهة الشمال مثل شيء ما. صار شعرها أسود بفعل الظلام. دارت دورة خفيفة ثم قالت: «هاي». قفزت إلى الحفير فتبعتها وأنا أمسك بالجراب الكتاني. لم يكن هناك بد من ذلك بعد التهيؤ فوق المقعد. وضعنا الجراب عند رأسينا وسمعنا بعض الحشرات تفعل مثلنا. وعندما استمعت إلى صوت الأمواج القريبة تخيلت أن الأسماك تفعل مثلنا. وأيضاً، عندما انتهت إلينا الضوضاء، تخيلت أنهم هناك يفعلون مثلنا، في الفنادق أو في الشقق. ظلت الحشرات تفعل مثلنا وهي تقفز. مرة فوق، مرة تحت، مرة فوق، إلخ. وأحياناً كانت الحشرات تصمت لكنها تتنفس تنفساً عميقاً غريباً، وأحياناً أيضاً تلهث لهاثاً دافئاً. ولا أدري ماذا كانت تفعل الأسماك، خصوصاً أن الماء يستطيع أن يتسرب من أي ثقب. لا أعرف كيف تتصرف الأسماك، لكني متأكد من أن الحشرات تتقلب وتلهث وتتنفس وتشم رائحة بعضها البعض. وفي حالة خاصة يصدر عنها صوت يدل على نوعيتها. كثرت الحشرات من حولنا وسمعنا أصواتاً كثيرة في كل مكان، في

النباتات وفي التراب، وعلى الأغصان. كانت زوجين زوجين. عندما تتكلم حشرة تصمت الأخرى أو تتنفسان معاً وتتشممان، إحداهما رائحة الأخرى. لكن الحشرات لم تضايقنا في قليل أو كثير وسط الحفير. (تنمو الحشرات ـ تزداد وتتكاثر دون أن تشعر بذلك ـ في كل مكان تتوالد ـ موجودة دون أن يكون لها اختيار ـ ولكن ما تفعله طريف ـ طريف جداً ـ لا تضايقنا ـ غير أني لا أعرف إذا كنا نضايقها ـ تتكاثر ـ تتكاثر وتزداد في كل مكان ـ مكان.)

وهكذا فلسوز رائحة متميزة لا كباقي روائح النساء. تتسرب هذه الرائحة متميزة بليونة ويسر، تتسرب بسهولة وبلا شعور في المسام الجلدية حتى تبلغ القلب فتختلط مع دمه مجتازة الصمامات. تتسرب هذه الرائحة وتبقى هناك دائمة، حيوية، منعشة، دافئة، مثل المطلق.

تقلبت سوز في مكانها وهي تهمس:

ـ انظر الليل.. كم هو جميل!

ـ نعم.

ـ اسمع الحشرات.. هل تسمعها؟

ـ نعم.. أصوات كثيرة.

ـ والبحر؟

ـ أيضاً، أسمعه.

ـ رائعة.. رائعة جداً.

ـ ماذا؟

ـ الأصوات وكل شيء. كل شيء. ثم. وكل شيء.

ـ نعم. وكل شيء. و. وكل شيء.

(صمت)

ـ الحشرات تفعل مثلنا.

ـ ذلك ما كنت أفكر فيه.

ـ حقاً؟

ـ نعم.

ـ إنها تتقلب.

ـ نعم. وتتقلب. في التراب وفي النباتات وعلى الأغصان.

ـ أصوات ليلية جميلة.

ـ لا تنسى الضوضاء فوق.

ـ الضوضاء؟

ـ نعم.

ـ لا أسمعها.

ـ يمكن أن يكون التراب قد دخل أذنيك.

ـ لا.. لكني لا أحاول أن أسمع.

(صمت)

ـ هاتي لي سيجارة.

ـ لا. لا تفعل. اخفض صوتك.

ـ لماذا؟

ـ سيكتشفوننا.

ـ وبعد؟

ـ سيأخذوننا إلى المركز.

ـ من؟

ـ العسس.

وكما لو كنت لا أعرف عن الحياة شيئاً تساءلت عمن سيكتشفنا. وأجابت سوز بهذه السرعة: «العسس!». خفضت صوتي وخفت من العسس. إنهم أشرار حقاً. علّمهم ذلك الرجل كيف يخافون أمام رؤسائهم ويتشجعون في الأماكن الخالية، أمام العزّل.

(نزلنا في الصيف الماضي ـ أنا وباربارا إلى البلاج بعدما غادرنا البايبرز ـ كانت الساعة الرابعة ليلاً ـ كنا ثملين ـ واقترحت باربارا في ذلك الجو اللطيف من نهاية الليل أن ننزل إلى البلاج وننام حتى الصباح ـ نشاهد شروق الشمس وننزع ثيابنا في الفجر لنستحم ـ وربما فعلنا ذلك الآن ـ أي في الساعة الرابعة بعد خروجنا من البايبرز مباشرة ـ الفكرة جميلة في حد ذاتها ـ جميلة ورائعة ـ انحدرنا جهة الشمال ـ وعندما أدركنا البلاج تمشينا قليلاً وقبّل واحدنا الآخر ـ وقفنا وأرخينا

جسدينا ليسقطا في الرمل ـ أدركنا تعب قوي فقلت لباربارا بألا ننام هنا ـ نختفي عند النباتات ـ وقفت باربارا وهربت وسط النباتات ـ أخذت تحدث بفمها صوتاً حيوانياً قريباً من بعض الطيور ـ فتشت عنها طويلاً لكني لم أعثر عليها أعلنت عن نفسها ـ تمددنا عند جذع شجرة ـ رفعت روبها إلى بطنها وتخلصت من بنطلوني ـ بدأنا نفعل مثل الآن ـ مثل الحشرات ـ فجأة انهال علينا ضوء البطارية ـ رفعت رأسها ورفعت رأسي ـ وجدنا الحارسين وهما يقهقهان ـ وقفت بصعوبة وظلت باربارا ممدة في مكانها فأرسل الحارس الجبان ضوء بطاريته بين فخذيها ـ كان يفتش عن شيء لم يره في حياته قط ـ خافت باربارا ـ طلب مني الجواز ولم يكن معي ـ قال اذهب هات الجواز واترك الفتاة ـ فهمت اللعبة وصعدت إلى فوق ـ اختبأت ورأيتهما يخفضان صوتهما ويطفئان ضوء بطاريتهما ـ أخذا يتعاقبان عليها مراراً ـ بعدها لم أستطع أن أرى باربارا.)

لذلك خفت عندما قالت سوز سيكتشفوننا. خفضت صوتي وسرت في جسدي رهبة خفيفة. قالت سوز وهي تتقلب فوق التراب في الحفير:

ـ لماذا سكتّ؟ الجو جميل.

ـ جميل لكنه.

ـ جميل لكنه ماذا؟

ـ لا شيء أخفضي صوتك.

ـ لا أتكلم بصوت مرتفع. هل خفت أنت؟

ـ لا. لم أخف. لكن أخفضي صوتك.

صمتنا وقتاً غير يسير. الحشرات توقفت بدورها وصمتت. الأسماك أيضاً. لم يعد الماء يتسرب من الثقوب الموجودة بجسدها. بدأت الأسماك تعوم في حرية وتتلقف ما يمكن أكله من أسماك صغيرة فأصغر. سمعنا الضوضاء تخفت فوق. وأيضاً كلاماً عند حدود المقاعد الخشبية. أرهفت السمع ورفعت رأسي بصعوبة. لم يكن المتكلمون عسساً ولكنهم مثلنا. أصواتهم تشبه أصوات الحشرات إلى حد بعيد. لكنها متميزة مع ذلك.

لامستني سوز وهي تقول:

ـ فيم تفكر؟

ـ في لا شيء.

ـ غير صحيح. أنت شارد ومتوهم.

ـ لا شارد ولا حاجة. أتأمل الطبيعة.

ضحكت وكتمت ضحكتها:

ـ رومانتيكي. غريب! لم أكن أعرف أني أخرج مع رومانتيكي.

ـ لست رومانتيكياً.

ـ يظهر عليك ذلك.

(صمت)

ـ نصعد إلى طوري.

ـ نحن فيها.

ـ أعني نصعد إلى فوق.. إلى الضوضاء والزحام.

ـ طيب.

سبقت سوز ومررنا بالمقاعد الخشبية التي كانت فارغة. أخذت أستنشق من جديد هواء المكان، لعلي أسترجع رائحة السيجارة الغريبة التي كانا يدخنانها. عبثاً حاولت. تيقنت أن ذلك مستحيل. وصعدنا الدرج الحجري. توقفنا ورأينا الأضواء باهتة تحت، ناصعة فوق. ثم مشينا متعانقين. أصبحنا وسط الضوضاء والضجيج. توقفت الحشرات لحظتها عن القفز فوق بعضها البعض وصارت هذه المرة تتكلم. تشير إشارات علنية وخفية. أحياناً، الحشرات تتفرج على الفترينات وتتبادل كلمات الإعجاب والغزل والسباب والمجاملة، إلخ. كفّت الحشرات عن القفز، بعضها فوق البعض الآخر وصارت هذه المرة تتكلم أيضاً. لكنها استعدت لمعاودة اللعبة. الحشرات الآن وهي تمشي وتتأمل وتتفرج، تفعل ذلك فقط استعداداً للقيام باللعبة الدينامية الدائمة، لعبة القفز واللهاث والاسترخاء بعد القفز.

صرنا أنا وسوز حشرتين كبيرتين ضخمتين. ولكي لا يبقى هناك نشاز أخذنا نضحك ونتفرج على الفترينات ونتبادل الرأي في معروضاتها. وقعنا مع الحشرات أيضاً أمام السلف ـ

سيرفس. رأينا الحشرات تدخل، تدفع عربات صغيرة، ذات سلاسل معدنية. تملأ الحشرات السلال وتمر قرب الفتاة الرابضة وراء آلتها الحاسبة.

قالت سوز وقد تحولت إلى حشرة كبيرة ضخمة:

ـ ندخل السلف سيرفس؟

ـ لماذا؟

ـ نتفرج ونشتري شوكولاتة وعنباً.

دخلنا وفعلنا مثل باقي الحشرات الأخرى الصغيرة والكبيرة. لم نشترِ عنباً ولا شوكولاتة. اشترينا باكيت تين مجفف. فتحته سوز وناولتني تينة جيدة. أخذنا نأكل في الشارع ونحن نفعل مثلهم. وضعت سوز الباقي في جرابها لأنني قلت «اكتفيت».

(في سنوات معينة ـ سنوات منطبعة بحد السكين في ذاكرتي وقلبي ـ كنا نعاني من الجوع الشديد والفقر ـ قيل حينها إن العالم كله كان يجتاز أزمة اقتصادية ـ غير أنه في حقيقة الأمر لم يكن العالم هو الذي يجتاز الأزمة ـ ولكن ـ العائلة ـ عائلتي أنا ـ لذلك كان أبي يعود بأي شيء يستطيع أن يملأ البطن حتى ولو كان براز بعض الحيوانات ـ وكان من العسير والصعب العثور على الخبز ـ لم أكن أعرف شكل الخبز الحقيقي الذي أصبحت فيما بعد لا أعبأ به وهو أمامي في مطاعم فخمة أو عادية ـ كنا نأكل أي شيء ـ نبات غرنينش

مثلاً ـ أو الحميضة التي تخلط مع البقولة ـ باختصار نأكل أي شيء ـ أي شيء ـ ولا أدري كيف حصل لأبي ذاك المساء: أن أتى بكمية كبيرة من التين الجاف وضعته أمي أمامنا على الحصير ـ والتففنا أنا وإخوتي ـ بينما أبي يراقبنا من فوق ـ إذ كان قد شبع من تناوله ـ وأصبح يتجشأ مثل حيوان غريب رأيته فيما بعد في حديقة عين السبع في الدار البيضاء ـ غير أن الليلة كانت سيئة للغاية ـ نمنا أنا وإخوتي في الكوخ ـ وأبي وأمي فوق السرير يطقطقان ويفعلان مثل باقي الحشرات الأخرى ـ ثم حدث ذلك الشيء الغريب ـ أصبح الكوخ القصديري مثل غرفة تنفست فيها البوتاغاز ـ وقف أبي ـ رأيته في الظلام يفعل ذلك ـ يفعل مثل الحشرات ـ قفز ـ أمسك بأختي وقال لأمي أن تشعل مصباح الغاز ففعلت على الفور ـ ثم أمسك بي من قفاي وأخرجني أنا وأختي من الكوخ وهو يزأر:

ـ يا أولاد.

قالت أمي: أكلا الكثير من التين.

ـ إذا أكلا فليذهبا ويتنفسا بحرية في بيت الخلاء.

ـ الليل والظلام شديد. لا تتركهما.

ـ ليس هذا شأنك يا قحـ. . .

أغلقت أمي فمها ولم نعد إلى البيت إلا بعد أربعة أيام لأن أبي منعنا من ذلك وهددنا بالقتل).

قلت لسوز «اكتفيت». فنظرت إليّ وهي تضحك ضحكة وادعة وبريئة:

ـ طيب. نأكله فيما بعد. أو نترك منه قليلاً لبيير (أخيها) ولاينا (صديقته). ثم ذهبنا نستعرض أنفسنا أمام علب الليل. سألت سوز إذا كانت تتوفر على نقود كافية ندخل بها إلى البايبرز. أخرجت على الفور ما بجيبها ثم قدمته لي فأحصيته. وأخرجت ما بجيبي ثم أحصيته. قلت بعد ذلك لسوز:

ـ هل ندخل؟

فكرت ملياً وهي مطأطئة. ثم حركت رأسها وحركت شعرها إلى الخلف وهي تقول:

ـ ندخل إلى البيت. يكون ذلك أفضل حتى بالنسبة لجيوبنا.

كانت سوز تسكن مع أخيها في عمارة خاصة. شرحت لي ونحن ندخل أن الشقة هي لأبيها الذي يشتغل طبيباً نفسانياً في الدانمارك، هناك في الجنوب، وأن هذه الشقة رهن إشارة أي واحد من العائلة. وقريباً ـ أضافت وهي تضحك ـ ستكون واحداً من العائلة وسيكون لك الحق في أن تصير الغرفة رهن إشارتك. شكرتها على ذلك وقلت لها بأني متعب ويجب أن أستريح.

ذهبت وتمددت فوق سرير عادي. سمعتها تحدث ضوضاء وصوت أواني معدنية وفخارية يأتيني من المطبخ.

ناديت على سوز. جاءت بسرعة وقالت إنها تهيئ شيئاً في المطبخ. كنت تعباً للغاية. ارتخيت وشعرت بهدوء وأمان لا مثيل لهما. حركت يدي إلى جهاز راديو فوق الكومودة. حاولت أن أفتش عن موسيقى هادئة لكني لم أعثر على شيء. أوقفت الجهاز وارتخيت. شعرت بدبيب النوم. وفي الصباح سمعت كلاماً فسعلت وفهمت سوز أني استيقظت.

وقفت وذهبت إلى الغرفة الثانية.

رأيت وجوهاً ثلاثة قالت كلها بصوت واحد:

ـ «جود مورنينغ».

ـ «جود مورنينغ».

(عندما سمعت صفيراً من خلفي التفتّ. وقفت إزاء المقهى وأخذت أفتش عن مصدر الصوت. ورأيت ذراعاً تلوح من بعيد. كان جالساً فوق حاجز حجري يفصل البناء عن السكة الحديدية التي تخترق طوري. انحدرت ذراعه ولم يكن وجهه يظهر لأن الشعر الطويل المنسدل على كتفيه يغطيه. لست أدري منذ متى لم يزر الحلاق.

مشيت ببطء شديد منهكاً من جرّاء الحرارة الشديدة. هناك ريح خفيفة تحرّك القميص المفتوح فوق جسدي. شعر جورج من بعيد يتحرك. يتحرك. يتحرك. قفزت فوق السكة الحديدية وصدمت بعض الأحجار الصغيرة الناتئة دون أن أراها. وعندما توقفت أمام جورج رفع رأسه ولاحت إحدى عينيه بينما الأخرى يغطيها شعر أملس كثيف.

كنت قد تعرفت على جورج وألان في أحد المقاهي المنتشرة هنا.. وبتدقيق، في المقهى الصغير ذي البابين الذي

قدت إليه سوز أول الامر. كان ألان هو الذي كلّمني وسألني إذا كنت قد اجتزت البحر بلا جواز. تعجبت للسؤال. وعندما قلت إني أملك جواز سفر تعجب بدوره. إن الحصول على جواز ـ في نظره ـ مستحيل. لكن هناك طرقاً خاصة لعبور المضيق. وعندما قلت لهما إني لا أشتغل تبادلا الحوار وقال جورج على الفور:

ـ أنا أيضاً لا أفعل شيئاً. الأفضل أن تبقى معنا. شكلك مريح على الأقل.

عندما وقفت أمام جورج أشار إلي أن أجلس إلى جانبه فوق الحاجز الحجري. فعلت ببساطة وقابلته وجهاً لوجه. قال:

ـ لم تر ألان؟

ـ لا.

صمتنا قليلاً ثم قال وهو يقف:

ـ إلى أين؟

ـ كنت ذاهباً إلى المقهى.

فشدّ خيوط حذائه المهترئ فوق الحاجز الحجري وهو يقول:

ـ هيا ننزل إلى البلاج.

وافقت دون أدنى معارضة. اجتزنا السكة الحديدية

وانحدرنا نحو المقهى الضيق الذي يمتلئ بالهيبي. وعندما وصلنا إلى المكان رأينا ألان يجلس مع فتاة. كان ظهره إلينا ووجهه إليها. توقف جورج برهة وأحنى رأسه. أخذ يفكر ملياً ثم قال:

ـ ما رأيك؟ نذهب ونجلس.

قلت:

ـ لم لا؟ ربما هي تعرف صديقات أخريات.

سحبنا كرسيين وجلسنا إلى جانب ألان والفتاة. قال ألان إنها إنجليزية. تعرفنا عليها وطلبنا زجاجتي كوكاكولا. انطلق جورج في الكلام معها بينما اجتاحتني موجة من الصمت. وزعت نظراتي على الكراسي الفارغة. كانت الضوضاء تأتي من الداخل. كلام بالإسبانية سريع. وأصوات مرتفعة كأنها تتخاصم أو تتراهن أمام لعبة مصارعة الثيران. أمام المقهى مكتبة. جاءتني فكرة أن أذهب لأتفرج على الكتب في الفترينة. لم أعتذر وذهبت إلى الفترينة وأخذت أتفرج على الكتب. أسماء كتّاب غير معروفين. كتب بالإسبانية والإنجليزية ثم لا شيء آخر. ظللت أتفرج وأبحث لعلّي أعثر على عنوان بالفرنسية. وحتى لو كان هناك فإني لا أستطيع اقتناء كتاب. ليس معي نقود ولا وقت للقراءة. ذهبت حتى رأس الشارع وعدت إلى المقهى. جلست منهمكاً دون أن أتكلم. كان جورج ما يزال مسيطراً على الموقف وهو يتحدث

بالفرنسية إلى الفتاة التي لا تتقنها بل لا تعرف كلمة واحدة منها. التفت جورج إليّ وهو يقول:

ـ هل تتكلم الإنجليزية؟

ـ قليلاً.

ـ ترجم لنا.

أخذت أقوم بدور المترجم ورفعت الفتاة رأسها إليّ وأخذت تنظر إلى شعري الأسود المشعث وهي تستمع بانتباه. لم تكن تعير أدنى اهتمام لما يقوله جورج. كانت تستمع إليه وهي تنظر إليّ. وأدركت أن الفتاة لا تستمع إليه إلا مجاملة وأدرك ألان ذلك وقال إنها تريدني فابتسمت وبقيت أحاول نقل بعض الجمل من الفرنسية إلى الإنجليزية ومن الإنجليزية إلى الفرنسية. لكني توقفت عن القيام بهذا الدور وأصبحت أتكلم مباشرة معها. رفعت يدها وأخذت تبحث عن بعض الشعيرات البيضاء في رأسي وهي تضحك. قالت وهي تلتفت إلى جورج: «إنه عجوز» لكنه لم يفهم شيئاً وسألني ماذا قالت فترجمت له وبقيت أحاورها. قالت إنها تستدعينا جميعاً إلى الرقص فقلت لهما ذلك ووافقنا. وشكرناها مسبقاً. وقفت بعد ذلك وذهبت إلى موعد. ووقفت عند فترينة المكتبة وهي تقول: «نلتقي أين؟» فقلنا «في البايبرز».

قال ألان إنها جميلة وغنية وتحب الحياة وهي التي كلمته أولاً وقال جورج وهو ينظر إليّ:

ـ لم لا نسرقها؟

قلت: لا أوافق... إنها طيبة ولا تستحق ذلك. وقال **جورج محتجاً**: أنت لا تصلح لنا إذن. ماذا نأكل وبأي شيء نذهب إلى المرقص ونجلس في المقهى. إنها غنية وتستحق ذلك. كل الأغنياء يستحقون السرقة.. قمْ أنت باستدعائها للرقص وأنا سأهتم بالحقيبة عندما تسكر.

قال ألان: نأخذها إلى البلاج ونتعاقب عليها.

قال جورج: نحن من الأمام والعربي من..

قلت لجورج: هيه! هل تعتقد أني أبله. الفتاة لطيفة ولا تستحق ذلك.

قال ألان: إنك أكثر من أبله. وماذا يفعل العرب الذين في باريس؟

غضبت، ووقفت. اتجهت إلى الفترينة وأخذت أتأمل العناوين من جديد. وسمعت جورج ينادي عليّ ولكني لم ألتفت. أحسست بكف توضع على كتفي. التفت فكان جورج. قال وهو يضحك:

ـ هل غضبت؟ إننا نمزح فقط.

أخذني من يدي إلى حيث كان ألان جالساً. وقال إنه كان يمازحني وإنه لم يكن يريد إغاظتي. كان على ذراع جورج وشم. عندما سألته عنه قال إنه وضعه في السجن، إذ قضى عامين في أحد السجون في باريس. فسألت جورج:

ـ لماذا دخلت السجن؟

ـ السرقة. أصبحت ثرياً ورب مرقصين. سيارات فخمة ونساء كثيرات. لكن أمثال هذا ـ وأشار إلى ألان ـ هم الذين يفسدون ما يبنيه المرء بدهائه طول عمره.

كان قد قام بعملية سطو مع عصابة. وعندما تمّ حجز متاعه أطلق شعره وذهب إلى الدار البيضاء ليهرّب الكيف. لكنه لم ينجح في ذلك. وهناك التقى بألان الذي يثرثر كثيراً. قال جورج: «أعدى أعدائي هم الشرطة. عندما أحصل على سيارة أستطيع أن أقتل شرطياً أو شرطيين. شركة التأمين هي التي تدفع.» ثم قال باندفاع مشيراً إلى رجل: «أنظر إلى هذا مثلاً. له رأس شرطي. أنظر كم هو أبله وبليد».

لم نعلق بشيء على ما كان يقوله.

نظرت إلى ألان ثم قلت:

ـ تدفع ثمن الكوكا.

أدخل يده في جيبه وأخرج قطعاً من النقود المعدنية.

قال: طيب سأدفع. لم يبق معي أي شيء. قال لي: هل معك تذكرة العودة؟

قلت: نعم في الفندق.

ـ ما رأيك تعطيني التذكرة وسأذهب لأبيع هذا الخاتم الذهبي أو أستبدله بكمية من الكيف في سبتة.

ـ أستطيع أن أفعل. لكن المسألة غير مضمونة. ما هي الكمية التي ستحملها من الكيف؟

ـ 20 كيلو.

ـ وحرّاس الحدود؟

ـ لا يهمك. سآتي عن طريق سبتة ـ طريفة. هناك مراكب كثيرة لهذا الغرض تهرّب كل شيء حتى السلاح. يجب أن تعرف أننا سنصير أغنياء إذا ما أعطيتني تذكرة العودة. إن السيجارة الواحدة المملوءة بالكيف تساوي 50 بسيطة.

التفت إليّ جورج على اعتبار أنه خبير في الميدان. نظر إليّ بعدم اكتراث ثم قال ساخراً من صديقه:

ـ لم يفعل هذا حتى عندما كنا نتوفر على نقود في طنجة. لا تهتم كثيراً بما يقول. درست المشروع من جميع الجوانب لكنه لم يؤد إلى أية نتيجة حتى الآن.

ـ هل تريد أن تفعل مثل ذلك الأمريكي الأبله الذي ضبطوه في مطار النواصر. كان من البلادة بحيث إنه دفع الحقائب مملوءة بخلاصة الكيف وكأن الحراس يخجلون منه ولن يفتشوها. أمور مثل هذه لا تتم بتلك السهولة التي تتصور.

سكت ألان أمام جورج ولم يرد عليه. كانت له كامل الثقة بما يتلفظ به هذا الأخير. إنه خبير في السرقة. حتى أني

أصبحت أسميه الرئيس فيما بعد. كان رئيساً حقاً. يفترق عنا وجيوبه فارغة. وعندما يستدعينا لنأكل ونشرب تكون امتلأت جيوبه بقدرة قادر. عندما أسأله يجيبني ببرودة دم:

ـ لا شيء. فتاة تعرفت عليها في أمستردام إلخ..

أو: لا شيء. فتاة تعرف ابنة عمتي. التقيتها في البندقية في العام الماضي.

أو: لا شيء. فتاة التقيتها وقلت لها كذا وكذا فأعطتني هذا المبلغ.

وأدركت أنه قادر على جمع المال وتحصيله. وصدقت أنه كان بالفعل رب مرقصين وعنده سيارات ونساء، وله قدرة خارقة على كسب المال. إنه مثل الطيور «تخرج خماصا لتعود بطانا». لا شيء في جيبه. ولكن بركة المسيح تملأه بالقطع النقدية من فئات متنوعة ومختلفة. وبسرعة فائقة نصير أغنياء ونذهب لنأخذ لنا مكاناً في مطعم متوسط. جورج دائماً صامت. لا يتكلم كثيراً. يتأمل الأشياء والأحجار والناس وكل شيء بدهاء وصمت. لا يمكن تخمين ما يفكر فيه. وعلى العكس كان ألان. فهو يتحدث ويثرثر ويبني مشاريع وقصوراً هوائية لا وجود لها. تهبّ ريح بسيطة وتهوي القصور الكرتونية، لكنه يستمر في الحلم دائماً، لا يعير أدنى اهتمام للفشل السابق. يبني من جديد فيهوي كل شيء. القصور كثيرة ومتعددة، مختلفة الأجرام والأحجار والأشكال. لكنها،

في الواقع غير موجودة (بالنسبة لي يحصل نفس الشيء أحياناً ـ ابدأ في الحلم ولا أكاد أنهيه ـ أبني ولا أنظر حتى كيف يتهدم ما بنيت ـ ومع ذلك أستمر في البناء ـ تتكاثر القصور وتتعدد وتتضخم ـ يكثر فيها الحشم والخدم وتتنوع الحياة داخلها ـ لكن عندما ينهار كل شيء أنهار بدوري ـ وبلا سابق اعتبار ـ أبدأ من جديد لأنهار من جديد ـ بانهيار القصور الكرتونية ـ وعلى العكس مني ـ فألان يبني ويبقى دائماً يحلم ـ يعيد البناء ـ يهوي البناء فلا يهوي ألان ـ يظلّ واقفاً ويبني من جديد كالمعتوه ـ لذلك ـ فأنا أعتبره أقل نضجاً مني ـ من يدري؟ ـ ربما كنت أنا غير ناضج).

كان جورج صامتاً دائماً. يفكر في صمت ولا يشرك أحداً فيما يفكر فيه. يستمع أيضاً في صمت ويعلق: «أية سفالة!» أو «شيء رائع!» أو «أي معتوه!». يعلّق بكلمات قصيرة لكنه لا يشرح لماذا أو كيف حدث هذا. يوجز كلامه في تلك الكلمات القليلة البسيطة، ويخرج كعادته دائماً أثناء الانفعال سيجارة بلا مصفاة يبدأ في تدخينها بهدوء شديد وبلا أدنى توتر. أما الآخر فهو يتحدث ويقول كل شيء. وعلى سبيل المثال لم أعرف شيئاً عن جورج سوى أنه لص قضى عامين في أحد سجون باريس. بينما الآخر، ألان، تحدث عن كل شيء، عن السابق وعن اللاحق. ويعزّز كلامه ببعض الصور الشمسية التي يخرجها من جيبه. كل ذلك وجورج يتأمل، يصمت، ينطوي، ويعلق: «أي معتوه!» ويُخرج سيجارة بلا

فلتر، غالباً من نوع سلطاس، ويبدأ في تدخينها بهدوء شديد ومثير بالنسبة لمن يراه. وأحياناً كان يقول عن نفسه بأنه واقف عند حدود الوهم.

عندما شرب ألان آخر جرعة من الكوكاكولا امتعض ورفع كفه إلى فمه. أثار انتباه جورج فنظر إليّ. قال جورج:

ـ الأسنان الملعونة أيضاً!

ـ هل تؤلمه؟

ـ نعم. فمه كله.

ـ عليه أن ينزعها.

ـ لا يمكن أن ينزع كل فمه. يحتاج إلى عملية جراحية.

أخذ ألان يتألم. ثم وقف ودار على نفسه. ذهب إلى داخل المقهى وعاد بماء ساخن. أخذ يشربه جرعة فجرعة. كان يفتح فمه بصعوبة لا حد لها. وعندما أتى على الكأس بأجمعها حاول أن يفتح فكيه ليلمس غطاء أسنانه اللحمي. هدأ من جديد ولمعت عيناه ببريق حيوي. نظرت إلى لحم أسنانه المائل إلى الزرقة وقلت:

ـ يجب أن تجري عملية كما قال جورج.

قال ألان وهو يقف:

ـ حدث ذلك في الدار البيضاء. اسأل جورج. كنا نقبّل معاً فتاة عربية وكانت تشكو من ألم في فمها.

وقف جورج وهو يهمس في أذني: «إنه معتوه! لا تسمع ما يقول.»

وقفت بدوري وسرنا في الرواق المؤدي إلى الشارع المرتفع. مشينا بين الفترينات اللامعة النظيفة. أخرج جورج علبة سلطاس وناولني سيجارة رفضتها. أشعل لنفسه واحدة. التفت إلى ألان وهمس في أذنه. قال ألان:

ـ هل تأتي معنا؟

ـ أين؟

ـ سنذهب لنقيل وراء السور. أنا بحاجة إلى النوم.

ـ لا.. نلتقي في المساء.

قال جورج:

ـ سوف ننتظر الإنجليزية أمام البايبرز.

مددت لهما يدي. ورجعت منحدراً جهة البلاج من الناحية الشمالية. وعندما بلغت الحافة التي تطلّ على الأجساد المنتشرة أخرجت سيجارة وأشعلتها. تنفست بعمق. أيضاً، فكرت في سوز. وأيضاً، قررت أن أنزع ثيابي وأنزل لأستحم.

كانت النافذة مفتوحة. متران على مترين.

سمعت سوز في المطبخ تحدث ضوضاء وضجيجاً. تضرب الأواني بعضها ببعض وتغني. صوتها يأتيني واضحاً وبلا تشويش مثل موسيقى حزينة، كنائسية، جنائزية. لا مجال هنا للتحدث عن الجناز والأناشيد الكنسية والحزن. يتسرب ضوء مصباح من الخارج، ويمتزج بضوء مصباح من الداخل. تبدو الشرفة ذات ضوء قمري. بعض الأصص موضوعة بشكل غير منتظم. كان كرسي خشبي وكرسي طويل آخر متجاورين في الشرفة ذات الإنارة القمرية. ذهبت جهة الكرسي الطويل ومددت قدمي، بحيث غادرتا الشرفة. صوت سوز ما يزال يأتيني كنائسياً حزيناً جنائزياً. ليس جنائزياً ولكنه دافئ وحزين. انحدرت الأصوات كلها في البحر وفي الخارج وداخل الغرفة وبقي صوت سوز مرتفعاً. انخفضت كل الأصوات حتى صوتي. ولم يبقَ أيّ صوت سوى صوت سوز.

دخلت عارية من المطبخ وجاءت إلى الشرفة. رأيت كل

شيء. كنت عارياً فرأت كل شيء. أمسكنا أنفاسنا وفتحنا سيقاننا وتبادلنا بعض العواطف الصادقة التي لا شك فيها. بعد ذلك عادت سوز وهي تأكل حبة عنب. عوض أن تجلس عارية أمامي فوق الكرسي الخشبي جلست على فخذي. ارتعشت وقلت لسوز:

ـ سيصيبك زكام حاد.

بالفعل عندما مرّت أيام قليلة أصبحت سوز تسعل. قلت لنفسي إني نجوت من هذا الزكام الحادّ، لكنه فقط جاءني متأخراً. أغلقنا علينا الغرفة وبدأنا نسعل. اشترينا دواء وضحك منا بيير وضحكت لاينا. وذات صباح استيقظ بيير وقال: كنتما تسعلان بشكل فظيع ليلة أمس. قلت: غير ممكن. قال: طبعاً لا يمكن أن تعرف لأنك كنت نائماً. ضحكت وقلت : من يدري؟ قال: اسأل لاينا. لم تتركانا ننام. هذه المرة يجب أن تتقن فعل الحب في الخفاء لا في الهواء الطلق. ضحكت سوز وقالت أنتما أيضاً تفعلان هكذا.

نظرت سوز في وجهي. ظلّت جالسة فوق فخذي ثم قالت في الأخير:

ـ إن الهواء حار، حتى في الليل، كيف يمكن أن نصاب بالزكام.

لكنني في الأخير أقنعتها. وقفت وأطلت من الشرفة عارية. رأيت بعض الحراس وفكرت في باربارا. هنا لا يمكن

للحارس أن يصعد. أعتقد أن بإمكانه أن يكتب تقريراً فظاً يصير بمقتضاه مربياً وفيلسوفاً ومصلحاً. وفي الغد، يأتي حارس آخر باسم السلطة ويسلم لنا ورقة تؤكد على العقوبة نظراً لانتهاك حرمة...

رأينا الحراس فعادت سوز وقبلتني. قالت إن الحراس يشربون البيرة. دخلت إلى المطبخ وتركتني. رأيت رشاش الحارس موضوعاً على الحاجز الحجري الذي يفصل البحر عن النباتات وهو يشرب البيرة. فكرت أنه لو سكر الآن لأصبح في خبر كان. كان الحارس الثاني، في الواقع، ينظر إلى رشاش زميله فوق الحاجز. عيناه تتجولان في الفضاء الواسع المظلم فوق البحر. يستمع لاصطدامات الأمواج ولصوت البحر. سمعنا نفير سيارة بعيدة. تلاشى النفير ووقفت سوز. مشت نحو الغرفة الثانية وقد شعرت أن الهواء البحري يبعث في جسدها القشعريرة والرعشة. أما أنا فلم أشعر بشيء. لقد شربت بما يكفي لرد برودة فصل شتاء كامل. ظللت في مكاني أتفرج على الحارسين. أدخلت قدميّ من وراء الشرفة عندما رأيت أصواتاً وظلالاً في ضوء حانوت البقالة الوحيد. وقفت وأخفيت نفسي داخل الغرفة. أغلقت زجاج النافذة وجذبت الستارة السوداء فوق زجاج النافذة. تمددت فوق الفراش ونظرت إلى صورة على الجدار. عادت سوز وقد ارتدت قميصاً. تركت القميص مفتوحاً عند الصدر فظهر نهداها الكبيران وتدليا.

قالت سوز:

ـ لماذا أغلقت النافذة؟

ـ الناس متجمعون تحت.

ـ ضع سروالك وافتح النافذة. الهواء شديد الحرارة الليلة.

ـ ليس حاراً ولا أي شيء. ولكنّا شربنا كثيراً.

جلست سوز إلى جانبي فوق السرير. كنت ما أزال عارياً وقد أغلقت زجاج النافذة. أحكمت الستارة السوداء. حاولت سوز عبثاً أن تقنعني بفتح النافذة. قلت إن الناس متجمعون وإن ذلك غير ممكن. قالت: لا يهم. قلت: كلا. شيء مهم.

وضعت يدي تحت إبطها وتحسست لحمها الطري الذي ينبض بحرارة صيفية قوية. لم تكن تضع السوتيان. نزعت القميص فلم تمانع. قالت سوز وهي تضحك بإغراء:

ـ ماذا تفعل؟

ـ لا يمكن أن تتفرجي عليّ. افعلي مثلي. أنا عريان فيجب أن تفعلي مثلي.

ـ أنت أناني.

ـ لست أنانياً ولا أي شيء. تفعلين مثلي حتى لا أشعر بعقدة.

ـ أنت غير معقد.

ـ حقاً. ما هو دليلك؟

ـ أنت تتعرى بحرية أمامي أعتقد أن ليس كل الرجال يفعلون هذا.

صمتت سوز وتمددت إلى جانبي فوق حاشية السرير. أدركت أنها مشرفة على السقوط. تداركت الأمر وجذبتها. أحكمت شد يدي تحت ذراعيها، وسمعت موسيقى غريبة تنبعث من خلف النافذة. تحت عند دكان البقالة الوحيد. كان بجانب الدكان كراسي مبثوثة. جعل من هذا الجانب إفريز مقهى مطل على البحر. قالت سوز:

ـ هل تعرف من الذي يعزف؟

ـ لا.

ـ سويسرية ضخمة. إنها تغني جميع الأغاني الأمريكية الشعبية. تتقنها إتقاناً بالغاً.

ـ يظهر ذلك. اسمعي جيداً صوتها.

صمتنا وأصخنا السمع للصوت المنبعث والموسيقى لغريبة. التقت أصابعنا وأخذنا نسمع فتحولت الموسيقى إلى صوت حشرات بدأت تقفز فوق بعضها البعض وتتهامس. لتشر الدفء في جسد الحشرات. أخذت الحشرات تفعل كل شيء مثل الإنسان على نغمات موسيقى خارج للنافذة وراء ستائر سوداء وداخل غرفة تؤدي إلى غرفة أخرى ومطبخ.

خلف الغرفة تأتينا موسيقى غريبة وكلام متشعب غير مفهوم. كلام غير أنه منخفض، وغير مفهوم إطلاقاً. وضعت سوز كل جسدها الآن تحت تصرفي. شعرت بالدفء والحرارة وكل شيء. أيضاً، الحرارة، المطلق، وكل شيء. وأيضاً، وكل شيء. وكل شيء. ثم وكل شيء.

صمتنا بهدوء. أخذنا نتنفس باستراحة المحاربين. شعرنا بالأمن في العالم. كان العالم كبيراً لكنه صغير تحت ملكنا. على الأقل، تحت ملكي الخاص. يمكنني أن أذهب أينما أشاء وأحل أينما أشاء. فلا أحد ولا شيء يمنعني. هذه إحدى اللحظات التي أشعر فيها بالرهبة وتتباطأ أنفاسي، تصير رتيبة. تتوالى بحرية وهدوء وعافية. أفقد التوتر وأعترف لنفسي أنها صارت حرة. تعيش حرية مطلقة عفوية. تتضخم حريتها وتنمو في الوقت الذي تسقط فيه كل العراقيل التي نماها الماضي، وولدتها تجارب بسيطة ومعقدة في نفس الوقت.

ظللنا ممدين جنباً إلى جنب. الموسيقى ما تزال تأتي. الصوت الدافئ يرتفع وينخفض. وأيضاً، كان هدير البحر يخترق زجاج النافذة والجدران والستائر السوداء وطبلة الأذن. لكن كل شيء كان يتضاءل أمام جلالة اللحظة وعظمتها. شعرت أن لمسة الجلد الإنساني كافية لأن تغير كل شيء. يصير العالم بمقتضى هذه اللمسة عالماً حقيقياً غير مزيف. فلطالما بحثت في اللحظات الإنسانية التي اكتشفت فيها الصدق. ولطالما فكرت وتساءلت إذا كان هؤلاء الناس من

حولي يفكرون في الشيء نفسه، أم أن هذا العالم لا يهمهم في كثير أو قليل، أن يكون صادقاً، آمناً، هادئاً مثل الآن. مهما يكن، فإن الناس الذين التقيتهم في حياتي لم يكن يهمهم كل هذا. كانوا يحاولون أن يكشفوا عن أنفسهم من خلال القضاء على الآخرين. بل إنهم لم يكونوا يوفقون في الكشف عن أنفسهم لأن ذلك غير ممكن. لم أكن في يوم من الأيام مثل هؤلاء الناس. تتاح لي فرص كثيرة فأغتنمها وأستفيد من روعة العالم ودفئه وتناسقه. أتأمل دقائقه وجزئياته وأقف أمامها بخوف وتقدير مثل الآن. كل شيء في هذه اللحظة له وجود ضروري. أشعر بالتناسق في كل شيء لا بالتنافر. شعرت أن سوز، لا كأي امرأة أخرى، تعرف كيف تساهم في إعطاء العالم الحنان والعذوبة والتناغم. وعلى العكس، فبعض النساء اللائي عرفتهن، كن يجعلن العالم يكشر في وجهي فأشعر بخوف وإرهاب. أتقلص وأنزوي وأصير مثل السلحفاة التي تدخل أعضاءها تحت غطائها تجنباً لشر خارجي. أنزوي مثل السلحفاة. أدخل زاوية في العالم. ألعن كل النساء وأكره العالم. أفتح لقلبي هوة سحيقة مؤدية إلى ظلام. وآمر قلبي أن ينظر بكل شجاعة داخل هذه الهوة، أن يقول لنفسه «ذاك مصيرك».

على العكس، الأصوات التي أسمعها الآن خارج الستائر السوداء متناسقة منعشة. لكن تلك الأصوات منخفضة بينما صوت سوز هادئ ودافئ.

شعرت بدبيب خفيف في عيني. ارتخيت فوق السرير. حركت يدي فلامست جسد سوز العاري. ارتعشت سوز. أز السرير وقالت سوز:

ـ قم لا تنم. ليس الآن وقت النوم.

ظللت مغمضاً عيني. أحلم بدفء عالم آخر اخترعته للتو. فتحت قدمي فتسرب برد خفيف بين فخذي. يسير مع الدم ويتحول في الجسم إلى شيء لا أستطيع تسميته. آلمني هذا البرد الخفيف وأنا أغمض عيني. حرّكت قدمي وتلاقت رجلاي فشعرت أن الهواء البارد اختفى لأنه لم يبق له هناك مكان لكي يتسرب منه. وضعت سوز إصبعها عند صرتي. دفعت إصبعها لتوقف حلمي اللانهائي بهدوء العالم وتناسقه. قالت وهي تدفع إصبعها في بطني:

ـ محمد. قمْ لا تنمْ. هذا ليس وقت النوم.

فتحت عيني وقد ذهبت الصورة. صورة العالم الكبير الواسع الآمن. نظرت إلى سوز وهي تبتسم عارية أمامي تحت ضوء المصباح. قلت في وجهها:

ـ أستريح فقط.

ـ هل كنت تحارب؟

ضحكت وأمسكت بيدها وجذبتها لتجلس مرة ثانية على حافة السرير. جلست وتلامس جسدانا فشعرنا بدفء جديد حي. قلت لسوز:

ـ أعتقد أنك لا تحبين الحروب؟

ـ لا أحبها.

ـ لماذا وضعت في ذهنك صورة محارب؟

قالت سوز وهي تحرك السرير:

ـ لكي أغيظك. أعرف أنك العربي الوحيد الذي يرفض الحروب.

ـ من قال لك ذلك؟

ـ استنتجته من كلامك السابق.

ضحكت منها فلم تغضب. غمرني دفء جسدها الخاص. توقف الصخب الذي انبعث لحظة بسيطة فقط، لحظة قصيرة لم تقس. لكن ظل هناك الصوت المنبعث من كل مكان. ذهبت سوز ووقفت عارية عند باب الغرفة المؤدية إلى الغرفة وانحنت. ووضعت كفّها عند خشبة الباب فرأيتها من الخلف. قالت:

ـ تريد أن تشرب؟

ـ لا أدري.

ـ كيف؟

ـ لا أدري.

ـ هل تشرب شيئاً؟

ـ لا أدري إذا كانت لدي رغبة.

فتحت سوز ساقيها عند الباب وأحنت ظهرها. أخذت تحك ساقيها بأظافرها. أغمضت عيني عندما رأيت الشق الكبير وأخذت أستعيد صورة العالم الذي بنيته قبل لحظة. عندما فتحت عيني كانت سوز قد اختفت وسمعت دندنات في الغرفة المجاورة. وقفت وقد وضعت قميص سوز فوق جسدي. مددت يدي وفتحت النافذة. ذهبت إلى الشرفة ومن زاويتها ألقيت نظراتي على الحارسين اللذين كانا ما يزالان يخطوان أمام ضوء البقالة. صوت السويسرية الضخمة كفَّ عن الإنشاد. غير أن موسيقى العالم لم تكف عن الاستمرار. كلام كثير منبعث خلف دكان البقالة. كان فتى وفتاة جالسين إلى طاولة في الجانب الذي يكوّن إفريز المقهى ويتهامسان. وضع الفتى الكأس في يده وأخذ يشرب. تخيلته يتلذذ في الشرب لأنني لم أكن أراه. كان جسماً موضوعاً هناك مليئاً بالمشاعر الذي لا يمكن أن أدركها. ربما أدركت الفتاة مشاعره، وأحسّت أنها قريبة من مشاعرها فقبلت أن تجلس إلى طاولته. وربما ذهبا بعد قليل إلى الأحراج القريبة المظلمة وفعلا مثلما تفعل الحشرات. ربما أيضاً دخلا إلى غرفة ما هنا وتعريا. أو ربما لن يتعريا. يكشفان فقط عن أجزاء من جسديهما. ينتشيان بعدها ويعودان ليشربا البيرة على الإفريز ويتبادلان الضحك والكلام مع الناس. وربما أيضاً يطلان على البحر من فوق الحاجز فيمنعهما الحارسان من ذلك، ويتمنيان لو أنهما فعلا الشيء نفسه الذي فعله زميلاهما ذات يوم مع باربارا.

قلت: «الأنذال!». وسمعت صوت سوز لحظتها. أدرت وجهي فلم أرها داخل الغرفة. سمعت صوتها من جديد فدخلت. قالت سوز:

ـ أغلق النافذة أنا عريانة.

ـ ضعي شيئاً على جسدك.

ذهبت ووضعت سروالاً وقميصاً بسرعة. وجاءت بسروالي وقميصي وقالت:

ـ ضع هذا..

أخذت أرتدي ثيابي في الوقت الذي كانت تسكب سوز الشاي في الفناجين. لاحظت غياب السكر مرة أخرى قرب براد الشاي. قلت:

ـ مليون مرة قلت إني لا أشربه بلا سكر.

ـ لا تغضب. سأحضر السكر على الفور.

ذهبت وعادت بالسكر. حملنا الفناجين وقطع الكعك إلى الشرفة. جلست قبالتي وأخذت تقرب الفنجان من شفتيها بحركات سريعة. تنظر إلى الشاي وتنظر إلى الشابين: الفتاة والفتى. قلت:

ـ حب كبير!

ـ إني أعرفهما. ليس حباً ولا أي شيء. هما في طور الإعجاب.

كنا نرشف الشاي الأسود وننظر جهة البحر والضوء والفيلات البعيدة التي تظهر أضواؤها على مرتفعات على طول ساحل الشمس. سمعنا المفاتيح تُدار في ثقب الباب. نظرت في وجه سوز ففهمنا كل شيء. قالت: «بيير ولاينا».

صمتّ ورشفت الشاي. نظرت إلى البعيد. حاولت أن أرى الماء وزرقته. لكن الظلام وضع حداً فاصلاً لكل الألوان. صارت كلها رمادية أو سوداء. حتى البيضاء منها فقدت نصاعتها. صاح بيير بصوته الجهوري من الغرفة الثانية:

- سوز.

- بيير.

سمعت حواراً يدور بينهما باللغة الدانماركية لكني لم أفهم شيئاً. سمعت أيضاً صوت لانيا ويبدو أنها تدخلت للرد على سوز أو لإتمام وشرح ما قاله بيير. سمعت سوز تقول كلاماً.

- . . . . . محمد. . . . . .

فهمت أنها تتحدث عني. سمعت بيير يثرثر:

. . . . . محمد . . . . . محمد. . . . . مح. . .

قالت: كانا في طوري. قال بيير إنه كان يود أن يأخذني وإياك معهما. ذهبا إلى مقهى بيدروس. شربا ويبكي وتذكرانا.

صمتُّ ولم أعلق. استمررت في رشف الشاي من الفنجان. سمعت لانيا من الغرفة الثانية أيضاً تتكلم موجهة

حديثها إليّ على ما أظن، لا إلى سوز. أصغت سوز ثم قالت كلاماً لم أفهمه. انخفضت الأصوات وسمعنا الباب يغلق. نظرت سوز من تحت نظارتيها الكبيرتين إلى وجهي. قرّبت الفنجان من شفتيها. رشفت جرعة ووضعت الفنجان فوق الصحن. قالت سوز:

ـ اشرب. سنتبعهما إلى تحت. نذهب إلى البقالة. نشرب قليلاً من البيرة ونتحدث إلى بعض الناس.

ـ هل فعل بيير ولاينا ذلك؟

ـ نعم. نزلا إلى تحت. قالت لاينا إذا كنا نريد أن نتبعهما فهما ينتظراننا على الإفريز. وافقت بهزة من رأسي. كنت أتيت على الفنجان بأكمله ولم يبقَ في قاعه سوى بعض وريقات أو بقايا وريقات اسودّت بفعل النار كما أعتقد. نظرت في القاع بتأمل فبدت الوريقات المفتولة مثل حشرات صغيرة سوداء، أو مثل براز الفئران في زاوية من البيت. كانت الوريقات ذات اللون القريب من الأسود قليلة (شيء طبيعي ذاك ـ لأن البراد صغير ـ ذو أنبوب صغير ـ تتسرب منه كل تلك الوريقات الغليظة ـ على العكس من ذلك ـ فالبراد الفضي الذي كان يستعمله أبي يطلق من أنبوبه كل شيء: الشاي مخلوطاً بالماء ـ والشاي بشكل وريقات.) قلت لسوز: «وريقات صغيرة.» وأشرت إلى قاع الفنجان.

ـ نعم، قالت.

ـ ليس مثل الشاي الأخضر عندنا، قلت.

ـ نعم. هل تحبه؟ نشتريه غداً.

نظرت في قاع الفنجان وقتاً طويلاً. تأملت براز الفئران في زاوية ما من البيت، أو في قاع الفنجان. وبدأت أتخيل أشياء كثيرة متنوعة، مجردة وملموسة.

وعندما انتصبت في الشرفة ورسمت الصليب، رأيت بيير ولاينا. قررت أن أنزل فقلت ذلك لسوز. نزلنا ومشينا تحت سقيفة العمارة. مشينا فوق طريق طويل مسفلت ثم صارت أقدامنا ملفوفة وسط الرمل. تخيلته أيضاً بارداً، ثلجاً، صقيعاً. الليلة جميلة ذات هواء رائع. آه، لكن المكان غير المكان. ففجأة يمكن أن يبرز اثنان ويفعلان مثلما فعل ذانك الآخران ببارابارا: يبسطان ضوء بطاريتهما بين فخذيها. وربما قد لا يفعلان، بل يكتفيان في الظلام بالتعاقب عليها حتى ينتشيا.

سرنا وسط الرمل البارد في باطني، المعتدل الحرارة في الواقع. كنا ننقل أقدامنا بصعوبة. وعندما أصبحنا وسط الطاولات المعروضة في جناح من البقالة بين المتجر والحاجز الحجري أصبحت الأرض صلبة، واستوت فوقها الكراسي والطاولات وبعض الرؤوس الآدمية التي تتدارس مشاريع الحب، والسفر، والسعادة. رأينا بيير ولاينا في الجهة الأخرى. ذهبنا أمام المتجر وطلبنا بيرتين على الإفريز. ضحكت الإسبانية الصغيرة في وجه سوز وتكلمت معها بسرعة

لغة لم أفهمها. ذهبنا إلى الإفريز وقلت لسوز:

ـ ننادي على بيير ولاينا.

ـ سوف يأتيان.

ـ أين السويسرية الغليظة؟

ـ لا أدري.

وضعت البيرتان وجاء بيير ولاينا. جلسنا إلى طاولة واحدة قرب الحاجز الحجري الذي يفصلنا عن البحر. كان الحارسان قد اختفيا ولم يظهر سوى قبعتيهما من خلف الحاجز. شعرت بانشراح وريح خفيفة تهب. رشفت البيرة ودغدغ حببها شفتيّ ببرودة ناعمة. برودة قاتلة ملساء كجلد الحية. تقززت عندما تصورت حية ملساء تقفز وتلدغني. إني كثير الخيال. هدأت أعصابي وحاولت أن أمحو صورة الحية القصيرة الملساء. امّحت الصورة لكن ظهر الحارسان من الجهة الأخرى يتمشيان بلا رغبة في المشي. لم أتمكن جيداً من رؤية وجهيهما. رأيت وجهين تحت القبعتين بلا ملامح. لكنهما فيما يبدو وجهان شريران. تخيلت أيضاً باربارا. ظهرت من جديد البطاريتان. ظهر الضوء بين فخذيها. بدأ الشريران يتعاقبان عليها. لم أستطع احتمال تلك الصورة.. أغمضت عيني وبدأت أتقزز. سمعت سوز تكلمني:

ـ هل تنام؟

ـ لا.

ـ عيناك مغمضتان.

ـ أغمضتهما فقط.

ـ لا تنم.

ضحكت وأخذت الكأس وقرّبتها من شفتي. شعرت أن الحبب اختفى من حفافي الكأس. الهواء رائع والكلام كثير. البحر يهدر والحشرات تقفز. وضعت يدي فوق فخذ سوز، ثم قربتهما قليلاً وأخذت أحلم في صمت دون أن أتكلم.

تحت السقيفة المنحدرة بشكل هرمي تألفت مجموعة من الأزهار قبالتي. امرأة بدينة تحرس مجموعة الأزهار أمام بيتها. تمتد دوائر خيالية من الرماد، تخرج من مكان لامرئي. المرأة تقف أمام الأزهار وتحدّق إليّ. يا إلهي! ذاك مجرد حلم. رأيت سوز وقد صارت بدينة أكثر من اللازم. ورأيت الأزهار والسقيفة المنحدرة بشكل هرمي. لا أتذكر أحلام النوم ولا أحلام اليقظة وحتى لو تذكرت الآن ما عساي أن أفعل؟ لماذا بالذات تقف سوز وقد لوت شفتيها أمامي تحت السقيفة؟ والأزهار؟ ماذا تعني؟ والشكل الهرمي؟ لا أعرف. كلها أشياء غامضة بالنسبة لي. ولكنها، مع ذلك، تفرحني وتبعث في قلبي المسرّة. سوز إذن، لو أتيح لي تفسير الحلم (أي المرأة البدينة) هي زوجتي. والأزهار الجميلة المتفتحة تحت السقيفة الهرمية هي أولادي. لكن أنا؟ ما محلي من الإعراب؟ لا أتذكر أين كنت؟ أجالس أنا؟ في مقهى؟ على الرصيف؟ أمام مرحاض؟ على عتبة البيت؟ لا أتذكر. كنت موجوداً أثناء

الحلم وكفى. كنت موجوداً، وأيضاً المرأة التي تشبه سوز، المرأة البدينة التي تلوي شفتيها بلا مبالاة وتنظر إلى الأزهار. لم تكلمني بادئ الأمر. ولكني من أعماق آلامي تحدثت إليها مثلما تحدث موسى إلى الرب. كنت منتفخاً مثلما يتحدث الأنبياء في لحظات الزهو والغرور. انتفخت فصرت مثل المنطاد. وحلّقت بعيداً وتحدثت إلى المرأة البدينة. ذهبت ولامست زهرة من زهراتها. لوت شفتيها أكثر لكنها لم تتكلم. ثم عدت إلى مكاني وتربعت. جلست مثل بوذا، أو مثلما يجلس الناس عادة في بلادي لتناول الطعام أو لشرب الشاي، تحت الأشجار أو في باحة البيوت التقليدية في عز الصيف:

المرأة ـ من أنت؟

أنا ـ رجل، إنسان. لكن أحاول أن أصير إلهاً. هل هذا ممكن؟

المرأة ـ إن الألوهية شيء صعب وعسير على أمثالك. انظر هذه الأزهار مثلاً. كانت آلهة فصارت أزهاراً. الآلهة تتحول إلى شيء بينما الأشياء لا تتحول إلى آلهة.

أنا ـ (تربعت جيداً، وضعت كفي على ركبتي وقلت) أيتها المرأة البدينة. وأنت، من أنت؟

المرأة ـ أنا سوز، امرأة من الدانمارك. عندنا قصور قديمة مليئة بالجرذان والسحر والتعاويذ وقد جئت لأنقذك.

أنا ـ وهل هذا ممكن؟ لقد رغبت في أن أصير إلهاً فقلت إن ذلك مستحيل.

المرأة ـ نعم.

أنا ـ وما هو هذا الشيء غير المستحيل؟

المرأة ـ تطلب شيئاً آخر. كأن تتحول إلى زهرة، كأن تتزوجني.

فكرت ملياً. يا إلهي! ما هذه الحيرة والعطالة في دماغي. إن ساعة الاختيار قد حلّت. ما هي إلا فرصة واحدة تتاح في العمر كله. وأنا؟ من أي جنس أنا؟ عربي. ما لكل العرب تتحقق فرص مثل هذه. لماذا لا أصير زهرة؟ ولماذا لا أتزوج المرأة البدينة التي يمكن أن تساعدني على أن أصير إلهاً. إن الألوهية والنبوءة لا تتحققان لكل البشر. أو، على الأقل، أصير زهرة لا أحقد ولا أفكر ولا أتألم. ولكن أضع عطراً رائعاً.

حرّكت قدميّ وتذكرت كل ماضيّ السيّئ الذي عشته واحداً مثل الملايين في قرى قذرة منتشرة في جبال الأطلس أو جبال الريف أو سهول الشاوية أو صحراء طنطان المترامية. وتذكرت صوت آلامي الكثيرة التي قصمت ظهري الضعيف. الآن وجدت الحل. امرأة بدينة تحبني وتنقذني من هذه الورطة الصعبة التي تتخبط فيها أوهامي وأحلامي. كانت المرأة البدينة (سوز) ما تزال واقفة تحت السقف الهرمي قبالة الأزهار

المتفتحة ذات الرائحة النفاذة العميقة. ثم فتحت فمي لأتكلم. وتغلبت على كل المصاعب اللغوية. وصار العي الذي عقد لساني شيئاً وهمياً فقط.

المرأة ـ لماذا سكت؟ وفيم تفكر؟

أنا ـ أفكر في مصيري الأبدي. لم تعطني ضمانة ولم تقولي من أنت. جنسيتك غير كافية. فالجنس البشري في نظري واحد. والحواجز وحرّاس الحدود، كل هؤلاء لا يعنون بالنسبة لي شيئاً.

المرأة ـ طيب. سأقول لك، لكن من أنت بدورك؟

أنا ـ عربي. وإذا أردت أن تعرفي شيئاً آخر فاسألي وسأحاول أن أجيب بما فيه الإيضاح.

المرأة ـ لماذا بالضبط تريد أن تصير إلهاً؟

أنا ـ لأن الله له قيمة.

المرأة ـ هل ما يزال الله حياً عندكم؟

أنا ـ نعم. وفي كل مكان. هو معنا أينما كنا.

المرأة ـ في السجن؟ وفي السعادة؟ وفي الشقاء؟

أنا ـ نعم. حتى في الحرب والسلم وفي البرلمان وفي الأزقة وفي كل مكان.

المرأة ـ شيء غريب.

أنا ـ ليس غريباً ولا أي شيء. هل أدركت الآن كم هو

مفيد أن يصير الإنسان إلهاً عندنا؟

المرأة ـ والأزهار؟ ماذا تفعلون بها؟

أنا ـ نحن شعب لا يحب الأزهار. نحب السياط ونحب الله.

المرأة ـ أمر غريب. أنت لا تصلح لأن تصير زهرة بل أسداً مفترساً أو زوجاً.

أنا ـ بما أني ضعيف البنية، قليل الجرأة، فلا يمكنني أن أصير أسداً سأصير زوجاً، وزوجاً لك.

ابتسمت المرأة البدينة وتمشت تحت السقيفة الهرمية الشكل. ذهبت إلى مجموعة الأزهار التي بدأت تحركها ريح خفيفة. لامست المرأة البدينة إحدى الزهرات الجميلة وأدارت وجهها إلى الجانب الأيمن ولم تحاول أن تنظر إليّ. أما أنا فحرّكت قدميّ تحت ثقل جسمي وجدّدت الجلسة البوذية، وأخذت أتأمل في الأزهار والمرأة. وأصاب لساني عي وحصر فلم أستطع الكلام وتوقفت رئتاي عن التنفس ومع ذلك لم أمت. استمررت في الحياة، جالساً متربعاً على شيء. لا أتذكر أكنت جالساً على حجر أم على الرصيف أم على كرسي. لم أكن أشعر بما تحتي. أغلب الظن أنها الأرض. أدارت المرأة في ذلك الوقت وجهها.

المرأة ـ طلبت وسألبّي رغباتك. لكن أعلم أن هذا مجرد حلم. إنك تحلم فقط. وأيضاً، سألبّي رغبتك في الحلم.

أنا ـ المهم أن تحققي رغباتي.

المرأة ـ لا عليك.

أنا ـ شكراً. . الحلم أو اليقظة عندي سيّان.

المرأة ـ هذا شيء غير مهم.

ثم ابتعدت عن الأزهار وأمرتني أن أقف وأن أقترب منها تحت السقيفة الهرمية الشكل. وقفت بصعوبة ومشيت إلى جانبها. ثم قالت يجب أن أبتعد عنها قليلاً لأترك لها حرية الاختيار. ففعلت ووقفت في الجهة الأخرى من الرصيف قبالة الأزهار. فتحت سوز قميصها عن صدرها وألقت به تحت قدميها. فتحت أيضاً أزرار بنطلونها وألقت به تحت قدميها. أزاحت كل شيء وظلّت عارية. ظللت أنظر إليها كأني لم أكن رجلاً. فلم تستيقظ أعضائي ولم تتفتح الرغبة لدي في شيء، بل نظرت إليها بتعجب.

المرأة ـ تعال اقترب مني.

أنا ـ لماذا؟

المرأة ـ لتضاجعني.

أنا ـ فعلت في السابق.

المرأة ـ أعرف ذلك. افعل أيضاً. تعال وضاجعني حتى تتحقق كل رغباتك.

أنا ـ وهل ذلك ضروري؟

المرأة ـ بالنسبة للحياة لا بالنسبة لي ولك.

أنا ـ هل تحتاج الحياة إلى مضاجعة؟

المرأة ـ نعم، فهمت كل شيء إذن.

اقتربت منها وأمرتني أن أنزع ثيابي. لامست جسدها بيدي فلم ترتعش كأننا لسنا رجلاً وامرأة وحدهما في خلوة. لكن المرأة البدينة ذهبت عارية قرب الأزهار. اقتربت منها وقطفت واحدة وعادت بها لتقول:

المرأة ـ شمّ هذه الزهرة.

أنا ـ هل هذا أيضاً ضروري؟

المرأة ـ نعم، بالنسبة للحياة لا بالنسبة لي ولك.

أنا ـ سأفعل.

شممت الزهرة، وعندما فعلت ضربتني المرأة البدينة على كتفي وقالت: أنت منذ الآن زوجي. حققت رغباتك. والآن تعال لننام مثلما يفعل باقي الناس في أنحاء الدنيا.

يا إلهي! هل كان ذلك مجرد حلم؟ لا أعلم. كنت صامتاً كحجر، كهواء. لم أعد أفهم نفسي بالقدر الذي يفهم به الناس أنفسهم. لم أكن أعرف ما الفرق بين الحلم واليقظة. الوهم هو ديدني، والصمت هو ديدني. لست قادراً على تحمّل وهم الأحلام.

ورأيت سوز هذه المرة في اليقظة لا في الحلم. أمسكتها

من ذراعها ونحن نمشي على رمل الشاطئ في الليل. وقلت لسوز:

ـ هل تحبين أن نمشي هكذا على طول الشاطئ؟

قالت سوز وهي تبتسم في وجهي:

ـ ولم لا. الجو ليس حاراً. ومنظر البحر مغر. لنستمع إلى وقع خطواتنا.

قلت:

ـ إنك رومانسية.

ـ هذه تهمتي لك. لا تعدها لي.

ضحكنا وتعانقنا وسمعنا الحشرات وسط أشجار قريبة من رمل الشاطئ تحدث أصواتاً غريبة ولم نحاول أن نفعل مثلها لصعوبة الموقف. قبّلت سوز قبلة منعشة. شعرت بلسانها يخترق فمي ويتحرك داخله. مشينا قليلاً في الرمل وشعرنا بموسيقى العالم تتوالى في كل شيء. توقفت عند حافة الماء وقلت لسوز:

ـ الأحسن أن نعود. الحراس هناك.

ـ ذلك أفضل. لكن الأحسن ألا تخاف أكثر.

ـ لا أخاف. ولكنهم هناك.

وعدنا متعانقين في الرمل على حافة الماء نستمع لموسيقى العالم وحركة الحشرات وحفيف أوراق الغابة. وأيضاً، ننظر

إلى تلك الأضواء القريبة والبعيدة. أحياناً، يحصل لي ألا أفرّق بين الحلم واليقظة. ولا أعلم إذا كان ذلك شيئاً مهماً أم لا. وأتساءل: ما هو المهم في حياتي؟ لا أعلم. إنني أعيش لأنني هكذا. بلا فلسفة. وقد تكون اللامبالاة طابع تفكيري. لكني لا أعي شيئاً سوى دفء العالم أحياناً.

مشينا دون أن نتكلم. شعرت أن الرمل تحت قدميّ لا يشبه رمل شواطئ الوطن. حتى الهواء كان غريباً إلى حد الجنون. حتى حركات انخفاض وصعود الرئتين في القفص الصدري تغيرت. صارت ذات نسق آخر حي. في السابق كان كل شيء رتيباً. كنت أشمّ الهواء وأشعر بقيود حديدية تكبلني. الآن، ورغم الخوف الهائل الذي يختفي وراء أحلامي، شعرت بالحرية.

عندما رأيت الأشجار القريبة منّا، وعندما رأيت الظلمة الخفيفة توقفت لحظة. وكانت سوز قد مشت عند حافة الماء وقد نزعت قبقابيها الجلديين. ورأيت قدميها تلمعان عند نهاية تكسر الأمواج في الظلام الخفيف. نقلت عيني من الأشجار إلى سوز ومن سوز إلى الأشجار. كانت قدماي تغوصان في رمل ناعم. توقفت وقلت لسوز: «سوزان». توقفت سوز ولم تلتفت إليّ ولكنها نظرت في الماء والضوء القريب. ثم التفتت إليّ:

ـ نعم.

ـ تعالي.

ـ لماذا؟ هل عثرت على شيء؟

ـ لا. تعالي.

ثم مشت نحوي. نزعت نظارتيها الكبيرتين ووقفت أمامي حتى غطت منطقة الضوء عند البقالة. قلت:

ـ نذهب إلى الأشجار.

ـ فكرة جميلة. ألم تعد تخاف العسس؟

ـ لا.

ـ إنهم هناك. انظر، بيير ولاينا يكونان قد صعدا أو أنهما ذهبا إلى نادٍ ليلي «نايتكلوب».

ـ تعالي أولاً. نذهب ونستريح في الغابة.

ـ الليل جميل بين الأشجار في هذا الوقت.

ـ نعم. أحب ذلك خصوصاً إذا لم يهددنا العسس.

ـ لا تخف أكثر أرجوك. خذ كامل حريتك وتصرف كما لو كانت إسبانيا كلها لك وحدك. أخذنا نضحك وأمسكت سوز بكفها فعرقت في كفي. كانت كفها كثيرة الشحم، رائعة الملمس. وكانت لها أيضاً رائحة الليل في الصيف. وعندما دخلنا وسط الأشجار القريبة من الماء رأينا فتى وفتاة في الظلام وقد استلقيا أرضاً. قالت سوز إنها تعرفهما. وعندما رأينا الفتى والفتاة يتضاجعان على مرأى منا، لم نخف فتضاجعنا نحن أيضاً. وأنجزنا العملية بسرعة فائقة كما لو كنا مطاردين أو محكوماً علينا بالموت.

قالت سوز بعد أن انتهينا:

ـ أنت لا تشبع مني.

ـ لا.

ـ وأنا أيضاً. جسدك دافئ.

ـ غير صحيح.

ـ أقسم لك.

ـ بماذا؟

سبقتها إلى الرمل ومشينا نحو البقالة. كان العسس يحرسون البحر قرب البقالة. في الواقع لم يكونوا يفعلون شيئاً من ذلك. ولكنهم كانوا يحرسون الفتيات والنساء السائحات القادمات من شمال أوروبا طلباً لدفء الرجال والطبيعة. وعندما وصلت إلى البقالة طلبت بيرة باردة فشربتها بلهفة. كانت صورة المغني أنطونيو سيفيليا معلقة بالباب. تأملتها قليلاً والتفتّ أبحث عن سوز. كانت خلفي وفي يدها قبقاباها الجلديان. طلبت بيرة هي الأخرى. دفعت ثمن البيرتين وصعدنا إلى الغرفة لننام منهكين دون أن يكون في إمكاننا الاستماع لأي شيء.

رشفت من زجاجة طونيك بالليمون وأعدت الكأس إلى مكانها. انطلقت طوري من عقالها. بدأت الأصوات النسائية المعتادة ترتفع وتتشابك. الرجال والنساء، والنساء والرجال. شعرت أنني واحد منهم في هذه اللحظة بالذات. شعور لم يكن عندي أبداً في السابق. الآن فكرت في شيء. كل واحد مثلي مهاجر، سائح، أو لص، أو لوطي. أنا مهاجر، نفسياً وكل شيء. لم يكن عندي شعور بالاستقرار أو بالأهمية. لكن، مع ذلك، أنا واحد منهم. رؤوسهم تختلف عن الأسود. هناك أيضاً رؤوس سوداء من البحر الأبيض. أمس تصفحت صحيفة فرنسية. قالت الصحيفة إن الفتيات الشماليات يجتزن دولاً كثيرة للوصول إلى إسبانيا أو شمال أفريقيا من أجل الرجال. تخيلت أن كل الرجال يمشون مطأطئي الرأس في شمال أوروبا دون أن يكلفوا أنفسهم عناء النظر إلى النساء المتعريات في الثياب القصيرة الكاشفة. وتخيلتهم أيضاً يضعون أكفهم على أعضائهم لحفظها من وباء

النساء. الصورة مكتملة في ذهني الآن: نساء متلهفات ورجال انحنت رؤوسهم وتدلت أذرعهم تحمي شيئاً ثميناً. فكرت لحظتها في سوز. إنها لا تشبههن. كان الرجال والنساء يتزاحمون.. كنت جالساً أرشف ما تبقى من طونيك. وكان الثلاثة إلى جانبي يتحدثون في أمور لم تكن تهمني.

قال جورج: إسبانيا ليست للإسبانيين.

وقال ألان: صحيح. انظر على طول الشواطئ تجد القصور الفخمة للعجزة الأمريكان أو الإنجليز.

قال جورج: الإسباني قوّاد أو لص بناء.

سمعت الحوار كله والتفتّ إلى جورج: «أوه، لا تقل هذا.»

ـ هل أنت إسباني؟

ـ لكن غير معقول. إنهم رجال حقيقيون.

ـ يظهر ذلك.

صمتُّ ولم أحاول أن أستمر في الحوار. التفت جورج إلى ألان وأخذ يحاوره. استأنفا الكلام عن إسبانيا هل هي للإسبانيين حقاً أم لا؟

كانت الكراسي الحمراء قد ازدحمت على إفريز مقهى بيدروس. وازدحم فوق الكراسي رهط من الناس يتكلم لغة غريبة. وتذكرت بلا سبب رواية كنت قد قرأتها وأنا صغير لبيير بول، عنوانها «كوكب القرود» وتخيلت أن كل الناس الآن

قرود لأنهم لا يستطيعون أن يفهموا بعضهم البعض إلا بالحركات. التفتُّ إلى جورج وقلت: «جورج!»

ـ نعم.

ـ هل تعرف بيير بول؟

ـ لا.

قال ألان: «ممثل؟»

قلت: «لا، كاتب.»

ثم استأنفا الحديث دون أن يهتما بي. واستأنفت الشرود والتأمل. الكراسي الحمراء مزدحمة وليس هناك كرسي فارغ. أيضاً، ليس هناك مكان فارغ للوقوف بالنسبة لأي كان في الطريق. يجب أن تسير مع هذا التيار أو أن تعود مع ذاك. بعد لحظات تفتح أبواب بيدروس السرية مثل قصر أسطوري. وبعد لحظات ستنطلق الموسيقى من جوف الأرض، وسيخف الازدحام، وسيتدحرج الناس إلى تحت في الأقبية لكي يرقصوا فرحة الإنسانية رغم أنهم لا يتفاهمون. بعد لحظات كذلك سيضبط البوليس شاباً إسبانياً أو مغربياً وراء مؤخرة عجوز أوروبي في مرحاض داخل مرقص.

نظرت بكل إحساسي إلى أذني ألان اللتين ظهرتا لي مثل غلاصم السمك البوري. إني كثير الخيال وتخيلته سمكة تضرب بذيلها ماء النهر العكر فيطير في الهواء ويستقر في النهاية ليعاود مجراه إلى حيث لا يدري أحد. وبدأت أفكر

طويلاً: يسير النهر بسرعة أو ببطء، يسير ويسير بأسماكه وأوحاله ويعسوبه وهوائه وكل شيء إلى حيث لا يدري أحد. ولكن بوضوح، يسير نحو البحر فيختلط به، يتبخر من جديد فيطير إلى السماء، ينزل إلى الأرض ويعود إلى النهر، وأيضاً تتكرر العملية من جديد: البحر ـ النهر ـ البخار ـ السماء ـ البحر النهر السماء البحر النهر البخار إلخ. وعندما تخيلت هذه العملية المعقدة واختلطت في ذهني هذه الكلمات شعرت بدوار حقيقي مفاجئ وشعرت بدوخة فرشفت رشفة طونيك. وحاولت أن أخرج نفسي من عزلتي. وتكلمت إلى جورج وألان، وازدحم الناس بكثرة في جيئة ورواح. وبديهي أني لست وسطهم في هذه الظروف الحرجة التي أعاني منها في العمق. العمق الذي لا يدركه أحد غيري. وكان الضجيج قد ازداد حولنا وامتلأت الكراسي واصطفت الزجاجات الفارغة والملأى بكثرة فوق الطاولات القابعة على إفريز بيدروس. وعندما صارت أمامي فجوة، إذ تفرق الناس قليلاً في الشارع، رأيت من الجانب الآخر باباً لمرقص وفوقه «ويسكي آغوغو» ولاحظ ألان أنني أنظر إلى مكان معين ففعل مثلي. فتح فمه وتكلم:

ـ هل نذهب إليه هذا المساء؟

ـ اسأل الرئيس، قلت. وكنت أعني جورج طبعاً.

قال جورج وقد سمعني رغم أن وجهه وانتباهه كانا للناحية الأخرى:

ـ لا نعرف ما في تلك العلبة.

ـ أناس بطبيعة الحال. لا أبقار ولا حلزونات.

ـ أعرف ذلك. لكن هل هناك ما يمكن إفادته بالمغامرة في الدخول وقضاء ليلة بأكملها هناك.

ـ كل شيء ممكن في أي مكان.

ـ حقاً؟

ـ نعم.

ـ أنا لا أغامر بليلة من أجل لا شيء. نلتقي في البايبرز.

ـ كما تريدان.

ثم كففت عن الكلام وعدت إلى الشرود من جديد. واستمرت الحكاية نفسها: الغادون والرائحون من كل جنس. لكن رؤوسهم في الأغلب الأعم شقراء وسحناتهم تختلف عن سحنتي. وجوه يبدو عليها أنها من تاريخ غير تاريخي، ومن منطقة مهما قيل عنها فهي ليست منطقتي. ثم عاد خيالي لنشاطه. وتصورت من جديد أن لهؤلاء الناس غلاصم مثلما للأسماك. وتخيلت هذه الأسماك مربوطة من غلاصمها إلى حبل. كانت الصورة مضحكة ودرامية في نفس الوقت. وكان الناس ما يزالون يختلفون إلى المقهى ويغادرونه ونحن جلوس دون حتى أن نتحرك. لكن جورج قال لي:

ـ محمد، ماذا تفعل؟

ـ لا أعرف.

ـ هل تبقى هنا؟

ـ لا أعرف.

ـ تعال نقوم بجولة مع ألان.

ـ لا أعرف.

ـ أنت أجهل من تلميذ بليد. ابق هنا.

قال جورج ذلك ثم وقف وذهب ألان ليدفع عني وعن جورج وبقيت وحدي جالساً فجاء شخصان وطلبا أن يجلسا إلى طاولتي لأن كل الكراسي عامرة. وافقت برأسي وعندما أتى النادل وقفت وانصرفت في الاتجاه المعاكس الذي سار فيه ألان وجورج. مشيت وسط الناس، ومررت بالقرب من «ويسكي آغوغو» وقررت أن أسير نحو لاس بالوماس لأشتري سندويشاً رخيصاً من تلك المتاجر الضيقة المظلمة. كان بي جوع كثير: جوع كثير له آلام. ولم تكن نقودي القليلة تسمح لي أن أتناول طعامي في مطعم أو وسط طوري. فالأجانب الأغنياء من الأمريكيين والألمان والإنجليز والهولنديين يدفعون دون حتى أن ينظروا إلى ما في أيديهم من فئات نقدية. وعندما يتسلمها الإسباني يقفز فرحاً دون أن ينظر إليها ودون أن يكلف نفسه عناء إحصائها. هناك شعور متبادل بأن هذا غني وأن ذاك فقير. ولعل فرانكو كان يشاهد هذه العملية يومياً ففتح نوافذ إسبانيا من كل الجهات إلا بعض النوافذ، أي من النافذة التي تسربت منها.

مشيت نحو لاس بالوماس وقد أنهكني الجوع، وبدا لي أن الطونيك التي شربتها على حساب ألان فتحت شهيتي للأكل. أستطيع أن آكل بقرة مشوية الآن.

كانت رغبتي في الأكل قوية لكني لا أستطيع أن أجد ثمن وجبة في مطعم متواضع. وعندما أبصرت أول بقال توجهت إليه. اشتريت خبزاً وسرديناً وقفزت فوق حاجز حجري وجلست فوق رمل الشاطئ وأخذت آكل. كان هناك كلب فقط في الظلام. غير أنه خلف ظهري. وراء الحاجز كان زعيق السيارات وضجيج محركاتها. أكلت في ضوء ينبعث من مصابيح الشارع ولم أكترث للكلب. وعندما انتهيت مسحت يدي في الحاجز وعاودت القفز فوقه وسرت باتجاه لاس بالوماس. وتجاوزته ومضيت أفتش عن جورج وألان. وجدت نفسي من جديد وسطهم. منهم من كان مثلي وحيداً، ومنهم من كان يجد من يتحدث إليه. لا يهم. العالم ليس غريباً ولا أي شيء. لقد خلق كل منا وحده. ليس ضرورياً أن يعيش الإنسان مع غيره. تلك ليست سوى عادة قبيحة تعلمناها عبر العصور. أما أنا ـ فآه ـ وما أقسى ذلك. فأستطيع أن أعيش. وإذا لم أستطع أن أحقق ذلك فلأبقَ في العمق، العمق الذي لا يتسرب إليه ضوء. العمق المظلم الذي هو عمقي.

مشيت وسطهم ومشيت وسطهم. وأيضاً، مشيت وسطهم. كذلك، وسطهم مشيت. ومشيت فخفّ الزحام ودخل الناس العلب وانبعثت الموسيقى من باطن الأرض،

وجفّ الهواء وصار بعد ذلك بارداً. كنت الآن قد انتهيت من إشباع رغبتي في الأكل. لم آكل كبشاً مشوياً ولا أي شيء. أكلت خبزاً وسرديناً مالحاً، جافاً تعلقت رائحته بيدي وشفتي ولساني. وكنت أشعر أني في حاجة إلى أن أرتوي بجرعة ماء. لا أعرف ولا أريد أن أعرف. لأدع الفرصة تعرّفني بكل شيء. الأساسي هو أن آكل وأشرب. أشبع نزواتي الأولية قبل كل شيء. المهم من هذا كله أن يحصل المرء على طاقات حرارية جديدة بقدر الكون: هل هي حقيقية أم مجرد وهم؟ فما أكثر ما تختلط الأوهام بالحقائق. ليس هناك حد فاصل بينهما. مهما يكن فإني لا أتقن فن إلقاء محاضرات في الفلسفة ولا أتقن فن تنظيم التأملات. أترك هذا لهؤلاء الشبان الذي عرفوا كيف يذهبون إلى الكليات بانتظام. لم يُتهموا بقتل آبائهم ولا أمهاتهم. لم يجدوا صعوبة في الحصول على عمل. بالنسبة لي، الشيء الأساسي والضروري حتى في أدنى مراحل الإنسان الحيوانية هو أن آكل وأشرب. أتزود بطاقات حرارية تجعلني أرى العالم بوضوح، لا من وراء ستر الضباب. ضباب الجوع والبؤس. لم آكل كبشاً صحيح. لكني أكلت سرديناً. وأنا متيقن أن جورج وألان يفعلان مثلي الآن وراء تلك الأحراج التي ينامان فيها ليلاً. إنهما لا يملكان حتى أجرة الأوتيل. عفواً ـ جورج يملك كل شيء. العالم وكل شيء. ولكنهما يرفضان الأوتيل ربما لسوابق تسهّل أمر اكتشافهما من طرف البوليس. اكتشفت ذلك من كلام ألان،

أما جورج الصامت فهو لا يقول شيئاً. ولكنه، مرة، وفي حالة نفسية خاصة دلّني على الحرج الذي يأويان إليه في الفجر عندما يغادران المرقص. وعندما تُشرق الشمس في الصباح ينزلان إلى البلاج وينامان من جديد، وهكذا. تتكرر القصة كل يوم وهما راضيان ظاهرياً، رافضان لذلك باطنياً. جورج وحده هو الذي يتألم من الداخل. أما الآخر فهو لا يعرف ماذا يفعل. إنه مثلي. أنا أيضاً لا أعرف ماذا أفعل. ولكن جورج يحكم على أني أَنضج من ألان. ربما بحكم السن. وأيضاً، ربما بحكم تجارب الطفولة والبؤس. إن طفلاً صغيراً منبوذاً في حيّ فقير من أحياء مملكة النمل السعيدة، لا يشبه بأي حال طفلاً يشتغل أبوه صحفياً في «الكنار أنشينيه». ابن صحفي مهما يكن، لا يستطيع أن يعيش مثلما عاش ابن لا أحد. ابن لا شيء. ابن نفسه. وابن الصحفي في حالة اليأس والانهزام يرجع إلى حضن العائلة مدلّلاً. أما ابن لا شيء، ابن لا أحد، المتهم بقتل أبيه، فإنه في حالة من الانهزام والسقوط ليس أمامه سوى المضي في حياة الانهزام والسقوط من جديد. وهكذا فسأمضي وسأمضي. إن رائحة السردين في يدي وتحت أنفي لا تشبه بأية حال رائحة كبش مشوي. فهناك بون شاسع. هناك حضارة، وهناك تاريخ بين وجبتين. إحداهما في قرية أولاد عامر والأخرى وراء حاجز حجري في طوريمولينوس، وعلى مرأى من أفخم أوتيل تطل منه شقراوات العالم الثريات وبعض العجائز اللاتي يصرخن في

حالة سكرهن: خيطانوس خيطانوس طوريرو فيفا إسبانيا. آه يا إلهي! لتحي إسبانيا عندما أشرب الشامبانيا وأسكن أفخم أوتيل وأرتاد أغلى المراقص. آه يا إلهي! لتحي إسبانيا عندما أستطيع في أرذل العمر أن أحصل على شابة، جميلة لكنها فقيرة. لتحي إسبانيا لتحي إسبانيا لتحي إسبانيا. لتسقط علب السردين والخبز الجاف. سأمشي. العالم كله لي مع ذلك. وهؤلاء الناس، وهذه الرؤوس. سأظل ماشياً وسأخفي رائحة السردين وسأحيي فتيات جميلات وأغازلهن، وسأدعوهن رغم أني لا أملك شيئاً سوى عضو متدل أنهكته حرب الاستنزاف من أجل لقمة العيش. وبلا حب مثل عاهرة سأمشي وسأوزع البسمات. أقول للعالم اضحك فأنت سعيد. أنا سعيد والناس سعداء. وحتى إذا لم أكن سعيداً فسأتخيل ذلك أو أفتعله.

قال جورج:

ـ فكرت في المسألة بجدّ هذه المرة. ما رأيك؟

قال ألان: إنه يوافق.

قال جورج: لم نطلب رأيك. أنا أوجه الكلام إليه.

قلت بوضوح: فهمت كل شيء وأعطيت رأيي فلا مانع عندى أيضاً. أنا أحب الحياة.

قال جورج: إنك تتكلم بغموض. ما علاقة حب الحياة بالمسألة؟

قلت: عفواً. لا أريد إزعاجك. أنا موافق مائة بالمائة.

كنت أفكر في هذا المستقبل الجميل الذي ينتظرني. مغامرة واحدة بسيطة. مغامرة جريئة تسهّل أمور العالم وتبسطه أمامك مثل خريطة: أضع إصبعي على أي بلد شئت.

قلت لجورج:

ـ أنا موافق مائة بالمائة. إنك كثير الحساسية. أنت لا تصلح لأشياء مثل هذه. يبدو أنك تقرأ الروايات البوليسية كثيراً. إنها تخدع السذج مثلك. تجعل البطل هشاً مثل تبنة، يسقط بسرعة في قبضة البوليس.

ـ أنا لا أفكر في هذا إطلاقاً. ضع ثقتك بي. أنا لا أقرأ الروايات البوليسية.

قال جورج وهو يمدّ يده إليّ: ـ «إذن اتفقنا.» وفي هذه اللحظة ظهرت صورة الرجل الغريب أمامي. ليس في حالة سكر لكن في حالة صحو. الآن أنا أمام الأمر الواقع. ضع ثقتك بي. جزائري كان يشتغل معنا. لا تكن كثير الأوهام. فقلت في نفسي «رواية بوليسية حقاً.»

قال جورج: ـ فيم تفكر؟

ـ في لا شيء.

ـ إنك تشرد كثيراً. ليس ذلك من علامات النجاح. كن يقظاً. إن لك روح شاعر. هذا لا يليق بك يا محمد.

ضحكت وضحكت بجنون فاشمأز ألان. ارتعد وهو يقول لجورج:

ـ إنه يسخر بنا. جورج لا تغامر مع هذا العربي. إني أعرفهم جيداً.

ارتعشت وتوقفت عن الضحك ونظرت بعيني الصقر إلى ألان. قلت بهدوء:

ـ أيها الحقير.

تدخّل جورج ودفعني بعيداً. كنت نحيفاً لكني أقوى منهما. ألان طفل غر، صبي أشقر، لا يتقن سوى الغضب والانفعال السريع. أما جورج فهو داهية، ذكي، محتال، لكنه ليس قوياً. بصقت أرضاً علامة الغضب. كنا نقف وراء الحرج الذي ينامان فيه والمؤدي إلى حديقة ففيللا فشاطئ البحر. بصقت مرة ثانية وثالثة. ارتعد ألان ونظر في وجه جورج. كان جورج قد أحنى رأسه فغطى شعره الكثيف المتدلي كل وجهه، ثم رفعه من جديد. نظرت في صمت إلى ألان. رأيته يرتعد وخفت أن يكون قد أصابه جنون أو مسّ. قال في غضب:

ـ حشرات!

قلت: من تعني أنا أم جورج؟

قال لي: ماذا فعل لي جورج حتى أعنيه يا . . . .

سكت واقترب مني وجحظت عيناه. لم أشعر فضربته على وجهه بلكمة. ألقيته وسط الحرج، ورأيته ملقى وسط الحشائش وهو يضع كفه على وجهه. أمسكني جورج بعنف:

ـ أيه. . . محمد. ماذا تفعل؟ أرجو ألا يحصل مثل هذا في طنجة.

ـ ألا تسمع أنه يشتمني.

قال جورج: لا تكن صبياً مثله. إنه مع ذلك إنساني. وقف ألان عندما سمع ذلك. اقترب مني وكفه لا تزال على وجهه. كان غضبه قد كف. قلت في نفسي «أي مازوشي هذا الحقير!» اقترب مني وفي نفس الوقت ابتعد جورج. كان يعرفه جيداً. اعتقدت أنه سيضربني أو سيغتالني أو سيقتلني. تهيأت للوقاية. لكن الآن مدّ يده إليّ. رأيتها. كانت صفراء منبسطة أمامي. وتساءلت لماذا يمدها إليّ؟

قال جورج وهو يبتعد عني:

ـ هيا صافحه وتعال اتبعني.

صافحت ألان ومضيت وراء جورج. تبعني ألان حتى وصلنا مقهى بيدروس وجلسنا هناك لنشرب طونيك. افترقت عنهما وسرت وحيداً. وحيداً مثل إله. ورائحة السردين في فمي، تحت أنفي وفي ثيابي. لكني لا أتذكر ماذا فعلت تلك الليلة. أعتقد أني حلمت في الفندق بسوز تلك الليلة. عفواً. لم أنم في الفندق لكن في الحرج مع ألان وجورج. نمت في هدوء كما لم أنم من قبل في هذه الليلة. كانت بعض الحشرات تضفي على النوم في الفجر نكهة خاصة. وفي الصباح وجدت أن جلدي قد احمرّ وظهرت عليه حبيبات من

جراء لسع البعوض. كان شكل تلك الحبيبات يؤذن بدمل وخراج قبيح على جلدي. لكن ذلك زال بعد مرور ساعات قليلة. لم ينتشر الدمل ولم يظهر الخراج. كنت أشعر بألم على جلدي وكنت أقاوم الرغبة في حكّه. حككت لاشعورياً في الفجر، أثناء النوم، بعض الأماكن. لذلك ظهرت محلها بعض الانتفاخات والتورمات وهي تغري أيضاً بالحك. وتخيلت صراعاً بين الكويرات البيضاء والحمراء، صراعاً تكون نتيجته انهزامي أنا. قلت: «غير معقول.» وأيضاً، في غرفة سوز في اليوم الأول والثاني حصل ما يلي: تركت سوز النافذة مفتوحة لأن الحرارة شديدة وكنا قد شربنا كثيراً، وشعرنا كأن الجو أصبح فرناً حقيقياً وفتحنا النافذة ونمنا. دخلت جيوش البعوض وشعرنا بلسع حقيقي كذلك. أخذت سوز تحك وأخذت أحك. ولم أكن شخصياً أعرف ما سبب ذلك، لأنني استبعدت وجود البعوض في هذه المنطقة إطلاقاً. وقفت سوز على التو وأشعلت الضوء. ظهرت نقط سوداء كثيرة على جدران الغرفة: جيش حقيقي من البعوض. خفت أن يكون هذا البعوض كله قد عضّني. ارتعدت للفكرة وقلت سأموت. كان خوفي من الموت إذ ذاك شديداً. لماذا أموت وأنا مشرف على أروع حياة؟ سوز، والحب، والجنس والخمر. جميع آلهات اليونان أصبحت أمامي: ديونيزوس، وأنا أيضاً إله. سأسمي نفسي: محمدوس، إله هذه الأشياء جميعها. لماذا الموت وأنا أشمّ رائحة عدن، بل أعيشها؟

كانت جيوش البعوض الملتصقة بالجدار كافية لأن تمتص دمي كله فلا يبقى مني سوى الهيكل العظمي. صورة: تتكفل سوز بحمل هذا الهيكل العظمي، تجمعه في كيس من البلاستيك وترميه من النافذة. تكون العظام طعام أول كلب ضال في العالم مثلي. يا إلهي! ما هذا الذي أفكر فيه؟ انتفضت من مكاني عندما ألقت لي سوز فوطة ثم شرعت أفعل مثلها. أخذنا نطارد البعوض ونضربه بقوة وعنف. بعضه مات ملتصقاً على الجدار وبعضه خرج من النافذة بعد أن ذهب بجزء من دمائنا. كانت الحكاية تلك الليلة بسيطة. في الصباح بعد حمام الشمس وملح البحر ذهبت كل التورمات واستعدنا قوتنا وسعادتنا. لذلك كنت متأكداً ليلة الحرج أن ما يسببه لي البعوض من لسع وتورمات سوف يزول للتو بعد مرور ساعات قليلة. وبالفعل، ذلك ما حصل، وأنا أمشي وسط هذا الزحام الخانق كنت أحاول أن أرى بقايا اللسع على ذراعي. مددتها أمامي. لم يكن هناك شيء. كنت في أتم القوة إلا أن رائحة السردين كانت تملأ خياشيمي، وكل الدائرة الهوائية التي تحيط بي. لم أكن أحب رائحته. وهكذا فقد قررت أن أتوقف في أقرب مقهى وأدخل التواليت، أغسل وجهي ويدي بالماء والصابون المعطر حتى أطرد الرائحة القبيحة، وحتى أستطيع بعد ذلك أن أشم هذا الهواء الذي يشمه جميع الناس. لتكون لي نفس الفكرة عن نفس العالم. ودخلت التواليت. غسلت يدي ووجهي بعنف كما لو كان أحد ينتظرني بالباب. ذهبت

الرائحة، رائحة السردين. وغادرت المقهى أبحث عن جورج، عن ألان وعن سوز. كنت أفكر في الغد. لا شيء بعيد أو مستحيل. سأجد نفسي في طنجة. سيتكفل جورج وألان بالتهريب، أما أنا فسأجني الثمرة ناضجة.

قال جورج:

«لا يهمك شيء. أنت ستبحث عن البائع وأنا وألان نقوم بالباقي. لا تفكر في اجتياز الحدود. هذا أمر أوكله إليّ». فقلت: «موافق ولا مانع عندي. أعرف الكثيرين في طنجة. وإذا لم ترد ذلك فسنقوم بالمهمة عن طريق تطوان وسبتة».

قال جورج: أنا أفضّل طنجة، ولي تجارب عديدة من هناك.

قال ألان: طنجة أو سبتة لا يهم. أنا أستطيع عبور البحر والحدود من هنا أو من هناك.

قال جورج: اسكت أنت.

والتفت إليّ:

ـ لا تعبأ به. إنه كثير الكلام.

ثم ملتفتاً إلى ألان:

ـ هل استطعت هنا في إسبانيا أن تحصل حتى على ما تأكله. أغلق فمك.

سكت ألان ولم يرد. صار مثل كلب أليف. كنت أرى

صدره العاري الأبيض مثل الشمع والذي لم تؤثر عليه شمس. كان أبيض مثل الشمع وعليه بضع شعيرات منتشرة، وحبيبات حمراء متناثرة وقد ابيضّت رؤوسها.

قلت لجورج:

ـ أعرف الكثيرين. سأقوم بدور الوسيط فيما أفهم بين المشتري والبائع.

ـ لا أكثر ولا أقل.

ثم أدخل يده في جيبه وأخرج حزمة من الدولارات وهو يقول:

ـ اسمع يا محمد... حياة أو موت. ثم إن خمس سنوات في السجن ليست في الحقيقة موتاً.

هذه الدولارات نستطيع أن نحصل بها على حوالي 15 كيلو من خلاصة الكيف والكيف الجيد. هل تعرف؟

سكت ونظرت من جديد إلى صدر ألان العاري الأبيض مثل الشمع. فكرت: ما هو دوري؟ لا شيء. أقوم بدور الوسيط. هؤلاء الأشخاص الذين أعرفهم جميعاً في السوق الداخلي ما فائدة معرفتي بهم؟ إذ ذاك رأيت الجنة، ورأيت عدن حقيقية ماثلة أمامي بكل ما فيها من صور خرافية، يوتوبية، حلمية. ثم كانت الرحلة بعد ذلك إلى طنجة. وكانت الجلسة الرائعة وراء كؤوس الشاي الأسود في طنجة مثل جلسة أو حضور في عدن. كانت الجلاليب والنساء

الجبليات بالكرزية والقبعات الواسعة الأطراف التي تضعها النساء مثل عدن حقيقية، إيروس، ديونيزوس، محمدوس. . . الخ.

وفكرت في أختي التي نضجت أكثر من اللازم:

«ـ بصراحة يجب أن تبحث عن عمل.»

«ـ إن أمك عجوز ولا تستطيع أن تعيلك.»

«ـ أبونا مات فيجب أن نفهم دورنا في الحياة».

«ـ كيف أن كل الكتب التي قرأتها عاجزة اليوم عن إطعامك.»

وتنهدت بعمق وقلت: «هل في إمكاني أن أعرف؟»

كان مستحيلاً أن أعرف.

لم أكن أعرف أي شيء لكني في الواقع كنت أعرف أشياء ولا يدخل هذا في لعبة اللغة طبعاً. الحقيقة أنني أعرف أشياء كثيرة، متنوعة، طريفة وغريبة. في نفس الوقت بالذات لا أعرف أي شيء. تظل معرفتي نسبية إلى حد بعيد. العمل؟ أين العمل؟ لقد وجدته الآن، بسهولة. وصحيح أن كل الكتب التي قرأتها ولم يقرأها جورج وألان تجعلني ألعب دور الوسيط فقط بين البائع والمشتري. ومهما يكن فإنهما، أي جورج وألان، يبنيان عالمهما في الواقع، بينما أبني أنا عالمي ـ في الحلم. والحلم، كما تعرف، ينهار. تتخيل أي شيء أي شيء أي شيء. لكن ذلك لا يعطي لذة. فاللذة الحقيقية هي لذة الحواس. وعدن هي عدن الحواس لا عدن الخيال والحلم.

قال جورج:

ـ لا أومن بشيء سوى العمل.

قلت: أنت لا تحب العمل.

قال جورج: ليس بمفهومه في مخيلتك. العمل هو الذكاء والاحتيال السريع. والبطش. في رمشة عين تصير غنياً.

سكتُّ طويلاً وفكرت فيما قاله جورج وتأكدت أن هذه أيضاً فلسفة عملية لا غبار عليها.

كان جورج هو كل شيء. ولم يكن ألان سوى تابع. صرت أيضاً تابعاً عن طواعية لا بالرغم مني. تأكدت أن ذلك أجدى من أي عناد أو صلف. وهذه أيضاً عملية وتفكير عملي كذلك.

وكنت، بالفعل، عندما وصلنا طنجة قد قمت بالمهمة التي كلفني بها جورج: أن ألعب دور الوسيط ليس لأنه لا يعرف طنجة، فهو يعرف حتى تلك الأزقة المظلمة في الدار البيضاء التي تعثر فيها الشرطة على جثة إنسان مقتول من أجل نصف درهم لا غير. ولكن تجنباً لكل الشبهات يقول جورج أنا أصلح للعملية نظراً للثقة التي أستطيع اكتسابها لدى المخبرين ذوي الحاسة الشمية الكلبية. لكن جورج كان مخطئاً في الواقع. هؤلاء الرجال المبثوثون هنا في جميع مدن وقرى شمال المملكة يستطيعون شم رائحة الكيف على بعد كيلومترين. ولكن مهما يكن فالمسألة قد تمّت أمس ببساطة عادية جداً، ففي مقهى «الحافة» استطعت وأنا جالس وراء كأس شاي أن أتحدث إلى النادل الحافي القدمين عمن يمكنه أن يبيعني كمية صغيرة من الكيف لأدخنه الآن. فأشار إليّ أن أذهب إلى جماعة جالسة فوق الحصير المشرف على الهاوية.

ذهبت فمدّ لي الرجل سبسياً لأدخن حتى أتعرف على نوع السلعة.

قلت: إنه مزيان، مزيان.

أخرج تويلتة، أي كمية من الكيف ملفوفة في ورق أصفر رخيص من تحت جلبابه قدمها لي. دفعت له نصف درهم وقبل أن أعود إلى مكاني وراء كأس شاي قلت للرجل:

ـ إذا ما احتاجك الإنسان فين يشوفك؟

ـ على الراس والعين. وقتما تشاء وأينما تشاء.

ـ غداً؟

ـ هنا نعم. هل هناك همزة؟ (صفقة)

ـ أعتقد.

فدعاني الرجل إلى كأس شاي أخرى. اعتذرت لأني لم أكن قد أنهيت كأسي. وعدت إلى مكاني. أفرغت سيجارة من التبغ وملأتها كيفاً. أخذت أدخن بكل حواسي وأرشف الشاي. وفي كل مرة أدفع ورق النعناع بلساني فيعاود السقوط داخل الكأس. كان البحر أمامي شاسعاً تحت الهاوية، وحدود إسبانيا واضحة، وبنايات بيضاء تظهر ومرتفعات جبلية تغطيها سحب بيضاء قليلة. بدت لي الصورة في تلك اللحظة أروع لوحة طبيعية موجودة على وجه الأرض. استلذذت الشرب، وأفرغت سيجارة ثانية من التبغ وملأتها كيفاً. صرت جامداً كحجر أتأمل زرقة الماء والبنايات البيضاء البعيدة خلف البحر.

وتصورت أني بعد يوم أو يومين سأكون هناك على تلك الأرض غنياً، ولن أحتاج بعد ذلك إلى تقليب مشاكل الطعام في رأسي. سأضع حداً لكل شيء. ولكن أليست هذه كلها حتى الآن مجرد أحلام؟ أين الواقع؟ وأفقت من تأملي وذهولي على يد الرجل.

ـ كيفاش السلعة؟

قلت بنشوة: جيدة، مزيانة. آه، مزيانة. نعم. جيدة.

ـ غداً نلتقي في «الحافة». هل أنت وحدك؟

ـ لا. معي أصدقاء. أو إذا شئت أنا وحدي.

خرج الرجل. عفواً لم يخرج، لكن اختفى غير أني لا أدري أين. ذهبت بعدها إلى جورج في الفندق وأيقظته. حكيت له كل شيء. أمسكني من كتفي وهو يقول:

ـ أنت بليد!

قفزت من مكاني. وحدّقت في عيني جورج مباشرة.

قال في غضب:

ـ وأكثر من هذا أنت تغضب. أنت بليد بليد.

وأطرق في تفكير شديد. ظل يفكر وقتاً من الزمن، ثم رفع رأسه فارتمى شعره الطويل إلى الخلف:

ـ لا يهم. المسألة الآن يجب أن نغير لها الخطة. أجلسني على الفراش وجلس قبالتي وأخذ يشرح لي. قال:

هل تعتقد أن المسألة تتم بتلك السهولة. أعرف أنك إذا عدت إلى ذلك الرجل فستنتهي إلى السجن فوراً.

قلت: لماذا؟

قال: لن أشرح لك. المسألة لا تحتاج إلى شرح. فالأمور لا تتم بتلك السذاجة. أفرغ مخك من كل تلك السذاجات إذا أردت أن تكون رجلاً حقاً.

ثم وقف وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو يتأمل البلاط والصنبور والجدار. إذ لم تكن بالغرفة الضيقة نافذة بالمعنى الحقيقي. ثم جلس في خفة إلى جانبي. وأخذ يشرح لي خطة جديدة. أعطاني تعليمات أخرى قال إنها جيدة. ثم أعلن وهو يمكني من كتفي:

ـ لا تعد إلى قهوة «الحافة».

قلت كالطفل المذنب:

ـ لن أعود.

وغادرنا الفندق واتجهنا إلى مقهى سنترال في السوق الداخلي، حيث جموع المجلببين والهيبيين الإنجليز والهولنديين والأمريكيين إلخ. جلسنا وسطهم ولحق بنا ألان الذي كان في سوق برة (السوق الخارجي) وأخذنا نشرب الشاي ونتكلم عن الحب والجنس والسلام مثلما يفعل باقي الجالسين حولنا. وأخذ جورج يصرخ مفتعلاً سروراً لا حد له: «حب ـ حب ـ حب ـ.» ثم أحنى رأسه فتدلى شعره

وحمل كأس الشاي الأسود، وأخذ يشرب. جاءت فتاة كانت تنظر إليه عندما كان يصرخ. كانت مخدرة وطلبت أن تجلس بجوارنا. كانت إنجليزية قذرة تتكلم فرنسية رديئة. أجلسناها ولم نتكلم معها فانصرفت للتو. وقال جورج: «لا تتكلم في أي شيء سوى في الحب والسلام والجنس.»

قلت بصوت مرتفع: «حب ـ حب ـ حب ـ .»

وكررتها بالإنجليزية فأخذنا نضحك ونضحك ونضحك ورشفنا الشاي اللذيذ. لكن تلك الليلة في غرفتي الضيقة القذرة في فندق «الشاون» تمددت في فراشي وأنشأت لي محكمة تاريخية تحاكمني. ومثلت أمام أعضائها الذين كانت الشرطة تنضم إليهم. وهكذا بدأت المحكمة عملها في تلك الليلة وبصفة سرية، وتوالت الأسئلة والأجوبة:

الرئيس ـ (متنحنحاً في لطف): إنك متهم هل تعرف هذا؟

أنا ـ (متنحنحاً بدوري ومستوياً في جلستي): نعم أعرف ذلك.

الرئيس ـ أولاً، لا تجلس (ملتفتاً إلى ضابط الشرطة) أليس كذلك؟ عليه أن يقف. (ثم موجهاً الكلام إلي) افعل كما لو كنت في محكمة حقيقية. (يضحك). إن الوهم يصير حقيقة في بعض الأحيان.

أنا ـ نعم. أعرف هذا. وهذا سبب إنشائي لمحكمة تحاكمني.

الرئيس ـ عفوك يا. . . نحن الذين أنشأناها ولست أنت. الحقيقة أنها من صنعنا جميعاً. أنت اخترت أن تُحاكم ونحن اخترنا أن نحاكمك.

ضابط الشرطة ـ تماماً. إلا أنه كان من الممكن أن تأتي بشهود ومتهمين آخرين. . . الخ.

الرئيس ـ أعتقد ألا داعي لذلك. فالمحكمة هنا تاريخية وفوق ذلك هي وهمية وغير مقبولة من طرف عقول كثيرة. لنكتف باستدعاء الأشخاص إذن للحضور إذا ما اقتضى الأمر. أما والحالة هذه فأعتقد ألا داعي لذلك.

أنا ـ معقول جداً. نكتفي بالأسئلة والأجوبة وبعد ذلك يصدر الحكم. سواء بحضور الناس أو بغير حضورهم.

ضابط الشرطة ـ بما أني أنا الذي ألقيت عليك القبض فأنا الذي سأشرع في الكلام أولاً. وسأحاول أن أكون موضوعياً بقدر الإمكان. غير أن كلامي لن يؤخذ مأخذ الجدّ إلا بعد أن يصدر الحكم. أما قبل صدور الحكم فهو لغو في لغو.

أنا ـ لك الحرية في أن تبدأ. (إلى الرئيس) أليس كذلك سعادة الرئيس؟

الرئيس ـ نعم. له الحرية في أن يبدأ.

ضابط الشرطة ـ سعادة الرئيس. ألقيت القبض على هذا الفتى العربي الشاب وهو متلبس بجريمة فظيعة، جريمة يندى لها الجبين. وهذه الجريمة تحاول القضاء عليها كل المؤسسات التي تسعى إلى صلاح الإنسانية.

الرئيس ـ إن الوثائق التي بين يدي لا تبين نوعية الجريمة. وتكتفي فقط بذكر لفظة «جريمة فظيعة».

ضابط الشرطة ـ ذلك نوع من المفاجأة.

الرئيس ـ طيب. هل لك أن تفصح عن نوعية هذه الجريمة؟ (ملتفتاً إلي) هل توافق أنت؟

أنا ـ نعم. بكل تأكيد.

ضابط الشرطة ـ إن هذه الجريمة فظيعة للغاية، سعادة الرئيس. والشرطة الدولية تسعى للقضاء عليها، لأن هذه الجريمة تهدف إلى تخريب الإنسانية. هل لك أن تتصور أن مفعولها أقوى من مفعول جميع الأسلحة النووية الموجودة فوق الأرض وتحت الأرض، في الشمال والجنوب، فوق البحار وتحت المحيطات . إنها سم، جريمة. ولا شك أنك تعرف ما أقصد.

الرئيس ـ ليس تماماً.

أنا ـ تجارة المخدرات.

الرئيس ـ آه. إنه موضوع جيد ومثير. فهو موضوع الساعة الآن. وهو موضوع خطير أخطر من حرب الشرق الأوسط وفيتنام وأنغولا.

ضابط الشرطة ـ هل تسمح يا سعادة الرئيس أن نخرج عن جادة صوابنا ونطلع على ما كتبته الصحف بهذا الصدد، بعض الصحف أقصد؟

الرئيس ـ ولم لا؟ ذلك ممتع جداً.

ضابط الشرطة ـ (يُخرج صحيفة. يفتحها ويبحث بين صفحاتها عن عمود معين.) آه. هوذا. لنستمع. (يقرأ): «صوّت مجلس الشيوخ، مساء يوم الثلاثاء الماضي، على الاقتراح القانوني الرامي إلى تنمية الإجراءات الصحية ضد التخدير وتعزيز مقاومة التهريب.»

الرئيس ـ هذا كلام رائع. أية صحيفة هذه التي نقلت الخبر.

أنا ـ صحيفة (س). إنها صحيفة محايدة.

الرئيس ـ (موجهاً الكلام إلى ضابط الشرطة) هل لك أن تكمل ما جاء في الصحيفة؟

ضابط الشرطة ـ (يقرأ) أكد وزير الصحة جدوى تعاون المحاكم مع مصالح العمل الصحي والاجتماعي.

الرئيس ـ هذا، بطبيعة الحال ما نسعى إليه. أليس كذلك؟ الهدف الرئيسي للمحاكم في نظري هو التعاون مع مصالح العمل الصحي والاجتماعي لمقاومة تهريب المخدرات.

ضابط الشرطة ـ (يقرأ) وهكذا وافق الشيوخ على البنود المختلفة للاقتراح القانوني، مع التعديلات الرئيسية التالية:

1) في إمكان القاضي أن يحكم على المهربين بمدد تتراوح بين عشر وعشرين سنة سجناً.

2) يمكن أن يضيف أيضاً إلى هذا الحكم أحكاماً أخرى

كمنع الإقامة مدة خمس سنوات وسحب الجواز ورخصة السواقة.

3) يمكن للشرطة أن تحقق في المحلات التي تكون بمثابة أمكنة لتعاطي المخدرات بصفة جماعية.

4) تمتد الحراسة من ثماني ساعات إلى ستة أيام.

(ينتهي ضابط الشرطة من القراءة ويضع الصحيفة إلى جانب الكرسي الذي يجلس عليه.)

الرئيس ـ هذا كلام رائع. إنها تعديلات فيما يبدو لقوانين عفى عليها الزمن. في أية دولة صدرت هذه التعديلات؟

ضابط الشرطة ـ لا أدري. ولكن الصحيفة مكتوبة بالفرنسية.

الرئيس ـ لا يهم. لنعد إلى المسألة التي تهمنا (لضابط الشرطة) قلت إنك اعتقلت هذا الفتى العربي لأنه كان متلبساً

ضابط الشرطة ـ نعم. جريمة فظيعة هي التهريب. ليس التهريب فقط، ولكن تهريب المخدرات. وهذا الشاب مع رفاق له يحاولون أن يهدموا الإنسانية وأن يخربوها من الداخل.

أنا ـ نعم. هذا حقيقي. لكن هناك أسباباً أساسية يا سعادة الرئيس، هي التي دفعتني إلى ذلك. وأعتقد أن من حقي أن أوضح هذه الأسباب.

الرئيس ـ ذلك من حقك. لكن دع الضابط يتحدث. فما نحن سوى أصدقاء فلا يجب أن تغضب.

ضابط الشرطة ـ اسمح لي يا سعادة الرئيس إذا تكلمت بهياج أحياناً. أنا لا أنسى أننا أصدقاء ولكني، لكي تكتب المحاكمة أهميتها التاريخية، يجب أن يكون هناك بعض الوقار، وافتعال الجدية والصرامة (ملتفتاً إليّ) أليس كذلك؟

أنا ـ نعم. هذا شيء ضروري. لكن لا تنسَ أننا أصدقاء.

ضابط الشرطة ـ لا عليك. لكن دعني أبدأ أولاً.

الرئيس ـ دعه يبدأ.

ضابط الشرطة ـ سعادة الرئيس هذا الفتى مجرم خطير. يجب أن تصدروا في حقه حكماً بمستوى الجريمة. (بصوت منخفض) هل يمكننا أن نستعين بما قرأناه في الصحيفة قبل لحظة؟

الرئيس ـ ليس الآن. لكن من الأفضل لكي تتم المحاكمة على ما يُرام أن ننسى ما هو مكتوب في الجريدة. أنت تعرف أن ما هو مكتوب في هذه الجريدة لا يهمنا نحن. ولكنه يهم دولة أخرى.

الضابط ـ صحيح. ما دام الأمر يتعلق بدولة أخرى فلنحكم وفق قانوننا الخاص.

أنا ـ ما هو قانوننا الخاص؟

ضابط الشرطة ـ اسأل الرئيس. عفواً: سعادة الرئيس.

أنا ـ سعادة الرئيس. ما المقصود بقانوننا الخاص؟

الرئيس ـ لا أعرف. اسأل الضابط الذي تلفّظ بالكلمة.

الضابط ـ لا أعرف بدوري. كنت أعتقد أن عندكما الجواب. لكن الأمر ليس مهماً إلى هذا الحد. لنتخلَّ عن لفظة «خاص» ولنستعمل كلمة «قانون» وحدها. هل في هذا كفاية؟

أنا ـ أعتقد ذلك.

الرئيس ـ كما تشاءان.

الضابط ـ إذن هذا الفتى مجرم خطير. هو مهرب كبير للمخدرات فهو يستحق عقوبة خطيرة.

أنا ـ لا تنسَ أنك صديقي.

الضابط ـ صحيح. قلت ذلك منذ الوهلة الأولى. منذ أن ألقيت عليك القبض. عاهدت نفسي على أن نبقى صديقين حتى النهاية. لكنه الواجب، أنت تعرف ذلك.

أنا ـ نعم إلا أنه عليك أن تخفف من حدة الاتهام.

الرئيس ـ لا تخف. نحن كلنا أصدقاء: المهرّب، والشرطي، والقاضي. لا عليك. لا تنس أيضاً أن المحاكمة هي مجرد محاكمة وهمية. والوهم غير الواقع. نحن نمثل فقط بعض الأدوار في القسوة والعنف والحب إلخ. وبعد ذلك نرجع إلى طبيعتنا الإنسانية الأولى. أتمنى أن نصير أصدقاء: الرئيس والمهرب واللوطي والمحامي والوزير والقوّاد. كلنا

سواء، لتفقنا على هذا المبدأ، وأعتقد أنه لا غبار عليه الآن.

أنا ـ نعم. لكن أكد ذلك من جديد للضابط.

الضابط ـ مفهوم، مؤكد، طبعاً.

أنا ـ الآن استمر في توضيح التهمة للرئيس. لك كامل الحرية في أن تنفعل أو تفتعل.

أنا أيضاً ـ نعم. تنفعل أو تفتعل.

الضابط ـ لا أفهم.

أنا ـ أعني لك كامل الحرية في أن تتكلم بهدوء أو هياج. وهذا هو الانفعال. كما أن لك كامل الحرية في أن تلفق لي تهماً أخرى عديدة لها، بطبيعة الحال، علاقة بالتهمة الرئيسية، وهذا هو الانفعال.

الضابط ـ فهمت.

الرئيس ـ إذن استمر.

الضابط (يسعل) ـ يا سعادة الرئيس، هذا مجرم خطير. ووجدنا في حوزته عدة كيلوغرامات من خلاصة الكيف كان ينوي بيعها في بلادنا لتخدير الناس، لجعلهم يغيبون عن وعيهم هنا في إسبانيا. وبما أنك تعرف أننا لا نغيب عن وعينا وأننا ملزمون دائماً باليقظة المستمرة والحضور المستمر فإن...

الرئيس ـ اسكت. اسكت أيها الضابط.

أنا ـ أسكت إنك...

الرئيس ـ تتكلم في أمر خطير، في السياسة. أنت تعرف عواقب هذا. قل تهمتك فقط ولا تعقب بشيء.

الضابط ـ عفواً يا سعادة الرئيس، نسيت أني أتكلم في أمر خطير. (بصوت منخفض) بيني وبينك، اشتقنا مدة ثلاثين عاماً للحديث في أمور مثل هذه. ألا تجد أن الحديث في أمور مثل هذه شيء رائع ومسل؟

الرئيس ـ معك حق. لكن لا تنسَ أنك ضابط الشرطة، وأني آمرك بألا تتحدث في أمور مثل هذه.

الضابط ـ (يقهقه ويقهقه) إنك غريب الأطوار. أنسيت أنك صديقي. وأننا نحن الثلاثة أصدقاء.

الرئيس ـ لم أنسَ ذلك. لكن يجب أن نمثل هذا الدور، في أمور مثل هذه. (ملتفتاً إليّ) أليس كذلك يا صديقنا العربي؟

أنا ـ نعم. لكن أنا أيضاً يعجبني الحديث في مثل هذه الأمور. ذلك شيء رائع حقاً، شيء مثير للعواطف والحنين إلى الوضوح البشري.

الرئيس ـ لكننا إذا استمررنا في حوار مثل هذا لن نخلص في النهاية إلى شيء.

أنا ـ ومن أدراك؟

الرئيس ـ تجربتي.

أنا ـ وأين تجربتنا نحن؟

الرئيس ـ لا تنس أنك مهرب.

أنا ـ من قال لك ذلك؟

الرئيس ـ ضابط الشرطة.

أنا ـ قل له إني مثقف أولاً قبل أن أصير مهرباً، إني مثقف بائس.

الضابط ـ لماذا تُضخم نفسك؟ أنت لست مثقفاً بل طالب فاشل.

أنا ـ وأنت؟

الضابط ـ تخرجت من كلية الشرطة.

أنا ـ على كل حال لم أرغب في أن أصير شرطياً. أنا إنسان قبل كل شيء.

الرئيس ـ هدوءاً أيها الصديقان. لا تنسيا أننا أصدقاء: الشرطي واللوطي والمهرب والقاضي إلخ. ندخل مباشرة في الموضوع. (للضابط) ما هي جريمته باختصار؟

الضابط ـ مهرّب مخدرات ضبطناه ومعه حقيبة في الفندق مليئة بخلاصة الكيف.

الرئيس ـ هل هذا صحيح؟

أنا ـ نعم، كل الصحة. لكن قبل كل شيء أؤكد حقيقة هامة. أنا فعلت هذا وأعترف به. غير أن الأمر المهم الذي يجب أن ندرسه هو دوافع هذا الفعل: ما هي الأسباب

الرئيسية التي جعلتني أصير مهرباً وحتى قاتلاً. وبين قوسين، أنا لم أقتل لكن سبق لي أن اتهمت بقتل أبي.

الرئيس ـ هذا مهم. ندرس أولاً دوافع هذا الفعل. لكن عليك أن تعرف أن المحاكم الحقيقية لا تنظر في دوافع الأفعال عادة. لكنها تنظر في النتائج فقط. ونحن سوف نتجاوز هذا لأن محكمتنا التاريخية هذه يجب أن تكون من نوع خاص. وعليه فإننا ننظر الآن في الدوافع الرئيسية للجريمة.

الضابط ـ رائع! رائع!

أنا ـ نتفق أولاً على دراسة المسألة.

الرئيس ـ الحكاية بسيطة.

الضابط ـ جداً.

الرئيس ـ سنطرح أسئلة وأنت تجيب. ويمكنك أيضاً أن تطرح أسئلة على نفسك وتُجيب عليها بنفسك ونحن نسمع. وسنحاول أن نساعدك في الإجابة. وهكذا عندما نعرف الأسباب الحقيقية، سوف نصدر الأحكام وفق نتائج الدراسة. وسنتجاهل في النهاية الجريمة كجريمة في حد ذاتها، أي الفعل بحد ذاته كفعل.

أنا ـ هذا شيء جميل. لأن الفعل ما هو إلا مجرد فعل. فالقتل فعل. والتغوط فعل. والأكل فعل. والمجامعة فعل. والمشي فعل.

الرئيس ـ رائع. إنك تعطي أمثلة ذكية جداً. يبدو أنك كنت طالب فلسفة. الفعل هو الفعل. لا أقل ولا أكثر. فهو فعل لأنه فعل. وما دمنا قد توصلنا إلى هذه النتيجة فلنعد إلى موضوعنا الرئيسي.

الضابط ـ نعم. إلى دراسة أسباب الجريمة.

في هذه اللحظة بالذات اختفت صورة الأشخاص الثلاثة: صورتي وصورة الضابط وصورة الرئيس. ضاقت الغرفة أكثر من اللازم. وكانت بضع قطرات مائية تتساقط في حوض الصنبور. إلا أن الأسئلة بدأت وتبعتها الأجوبة مباشرة. ولم أتخيل نفسي في طنجة، لكن في مكان آخر.

س ـ قبل أن نسألك عن سبب الجريمة نتعرف عليك.

ج ـ من مواليد 1930. الاسم محمد. الأب: فلان بن حسن أو حسين لا أذكر. الأم: فلانة محمد أو محمود لا أذكر. مكان الازدياد: عرباوة. هل هذا فيه كفاية؟

س ـ لا. لا نريد هذا. هذه أشياء محسوسة. يعني موجودة ومثبتة في أوراقك الرسمية. ونحن نريد ما هو غير ثابت في الأوراق الرسمية. أنت تعرف ما في أوراقك وما في أوراقي وأوراقه. هذه كلها أشياء نسبية وإن كانت تبدو أكيدة.

ج ـ طيب. اسألوا وأنا أجيب.

س ـ كم عدد النساء في حياتك؟

ج ـ كثير. ومن كل الجنسيات. ولمعلوماتكم يجب أن

تعرفوا أنني محظوظ. ولو بقيت طالباً في الجامعة لما عرفت واحدة.

س ـ شيء غريب. لكن لماذا؟

ج ـ الجواب سهل. في الجامعة، الأساتذة مكبوتون. يأخذون كل الفتيات إلى غرفهم أو إلى الأوتيلات مقابل أن ينجحن في نهاية السنة. أما نحن فنمارس العادة السرية.

س ـ غير ممكن.

ج ـ لم لا؟ قوموا بإحصاء وسترون.

س ـ هل تعتقد أننا نصدقك؟

ج ـ لا تصدقوا. لذلك تجدون أن كل الطلبة يتهافتون على الدكتوراه حتى يصبحوا أساتذة في الجامعة، ليس حباً في العلم لكن حباً في الفتيات الضعيفات المعقدات.

س ـ وإذن أنت اخترت طريقاً آخر للنساء؟

ج ـ نعم. وهو طريق رائع.

س ـ لكنه طريق قبيح.. طريق الجريمة.

ج ـ ليست جريمة. فالجريمة في الواقع هي ما يرتكبه الآخرون لا ما أرتكبه أنا.

س ـ كلام منطقي. هل لك أن تقول لماذا اتهمت بقتل أبيك؟

ج ـ ليس لهذا علاقة بالتهريب.

س ـ حقاً، لكن لتسليط بعض الضوء فقط على القضية.

ج ـ أية قضية؟

س ـ القضية . . قضيتك ألا تذكرها؟

ج ـ التهريب؟

س ـ نعم .

ج ـ اتهموني ولم أعرف لماذا؟ لكن المسألة كانت بلا نهاية وبلا بداية ـ شأن باقي المسائل التي تشابهها .

س ـ هل ضربوك؟

ج ـ لا . أجروا تحقيقاً بسيطاً في الأمر . لكن أبي مات ميتة عادية .

س ـ قيل عكس ذلك؟

ج ـ العلم عندكم وعندهم .

س ـ لا . . . عندهم هم . نحن ما دخلنا؟

ج ـ لا أعرف .

س ـ سؤال آخر : ماذا كنت تنوي أن تفعل بهذه النقود التي تكسبها من تهريبك للكيف؟

ج ـ واحداً من أمرين : إما شراء بار في أمريكا اللاتينية ، أو إدخال السلاح إلى جبال الريف ، لأن هؤلاء حاربوا عام 1957 ضد السلطة ببنادق صدئة فارغة .

س ـ ألا تجد هناك تناقضاً بين شراء بار كطموح رأسمالي ، وبين تهريب السلاح كطموح ثوري؟

ج ـ لا أدري .

س ـ لماذا؟

ج ـ لأنني لا أدري.

س ـ إذن أنت لست مثقفاً.

ج ـ بالعكس. كل المثقفين في العالم هكذا. إنهم موزعون بين طموح ذاتي وطموح جماعي.

س ـ ممكن. لكن حدّد طموحك أنت.

ج ـ لا أستطيع. أو قد أستطيع في المستقبل عندما أُشبع بطني أولاً.

س ـ هل أنت جائع؟

ج ـ أكثر من جائع. من يعطيني قطعة خبز؟

س ـ يجب أن تشتغل. الخبز لا يأتي هكذا.

ج ـ لكن أين العمل؟

س ـ لماذا لا تشتغل بنّاءً أو شيئاً من هذا النوع؟

ج ـ لا أستطيع.

س ـ لماذا؟

ج ـ لأني لم أتعود على ذلك منذ ثلاثين سنة. أطلب العيش من أسهل طريق.

س ـ ما هو أسهل طريق؟

ج ـ لم أهتدِ إليه بعد.

س ـ هل تعتقد أنك ستهتدي إليه؟

ج ـ ربما.

س ـ بأية وسيلة؟

ج ـ لا أدري حتى الآن. ربما بالتهريب.

س ـ آه. لنعد إلى موضوع التهريب. هل تعرف أنك اقترفت جريمة خطيرة تُعاقب عليها بعشرين سنة سجن.

ج ـ نعم، لكن هناك آخرين أجرموا في حقي.

س ـ هل لديك حجج مادية ضدهم؟

ج ـ لا.

س ـ إذن عليك أن تتحمل العقاب كما تحملته آلاف الأجيال من قبلك. هناك قوة أعلى منك ومنهم ومني، هي التي تحكم وتنفذ.

ج ـ إذن، نفذوا فيّ الحكم.

س ـ سنفعل على الفور.

ج ـ هل يكون الحكم قاسياً؟

س ـ نعم. وفيما يلي نصه؟ «حكمت عليك المحكمة، في هذه الغرفة الضيقة من فندق «الشاون» بطنجة بالنوم حتى الساعة الحادية عشرة صباحاً. الآن عليك أن تستريح فالجو حار. لكن قبل أن تنام عليك أن تحكم إغلاق الصنبور، لأن بعض القطرات تتساقط، وتثير قلقاً لا حد له.»

كانت قد انقضت علينا أربعة أيام في طنجة: شربنا فيها الشاي، ونمنا في الفندق، وفوق الرمل، على الشاطئ.

تخدرنا مثلما تفعل هذه الطيور الغريبة الوافدة من أصقاع العالم. بحثنا. دخلنا في العالم وخرجنا من العالم ـ خرجنا من العالم ودخلنا في العالم ـ تخدرنا. وقال جورج عندما سألته عن موعد الانتقال إلى إسبانيا وقد وجدنا البائع: « ـ ليس الوقت وقته. لتمهل قليلاً فالحراسة مشدّدة خلا هذين الأسبوعين من تطوان إلى سبتة. فرجال الجندرمة مبثوثون في كل الأماكن هناك. ولا يمكن أن تمر حتى ولو ارتديت جلباب أحد الجبليين الذين يعبرون الحدود خفية ليشتروا كيلوغراماً واحداً من السكر.» وعندما اتخذ جورج هذا القرار لم يستطع ألان ولا أنا أن نقنعه بالرحيل فوراً وقد أصبح في إمكاننا أن نشتري الكمية التي نريدها. لكن جورج رفض وقال إننا لا نعرف ظروف العمل. وهكذا لم أكلف نفسي مشقة الرفض. فأنا لست خبيراً، ولم أضع وشماً على ذراعي في السجن. وحتى إذا وضعته في المستقبل فليس ذلك من شأني ولا يعنيني إطلاقاً.

عندما غادرت الميرادور أمس في الخامسة صباحاً، كان فندق الشاون مغلق الأبواب. وعبثاً حاولت أن أضرب الباب الخشبي بقوة يدي المتعبتين من فعل الشراب الكثير. لم تكن عادتي أن أشرب حتى أغرق. ولكن كل شيء تتعود عليه. وهكذا فقد تعودت على الغرق في نهاية الكأس، وفي نهاية الجنس. كنت أغرق وأحاول أن أنقذ نفسي من جديد، وأعاود الكرة بطريقة سيزيفية عابثة لكن دون جدوى. هذا شيء غير

مهم. فعندما أدركني التعب في الخامسة صباحاً ذهبت ونمت على الشاطئ الرملي مباشرة قرب الميناء. وكان يفصلني عن ضوء البواخر سياج حديدي ربما كان مكهرباً. نمت دون أن أنزع جزءاً من ثيابي، بل على العكس حفرت لقدميّ حفرة في الرمل الدافئ وأدخلتهما فيها، لم أستمع إلى الضجيج المتضخم مباشرة حولي. كان يأتيني كما لو كنت أسمعه في حلم. كان ضجيجاً صاخباً مثل يوم القيامة. يوم ينفخ في الصور فنأتي أفواجاً أفواجاً. ورأيت وأنا بين النوم واليقظة صوراً هندسية غريبة ليوم القيامة. كانت الأفواج مصطفة هكذا:

فرادى

فرادى

مثنى مثنى

ثلاث ثلاث ثلاث

رباع رباع رباع رباع

رباع رباع رباع رباع

ثلاث ثلاث ثلاث

مثنى مثنى

فرادى

فرادى

وكان بالقرب من هذا الشكل، شكل آخر مشابه. وقربه أيضاً شكل يشابهه. وهكذا إلى ما لا نهاية من: فرادى، فرادى إلى فرادى، إلى ما لا نهاية. وعندما فتحت عيني كانت الحادية عشرة والحرارة شديدة والأجسام مبثوثة فوق الرمل، منبطحة في أوضاع جنسية مثيرة بالنسبة للرجال والنساء على السواء. وبعض هذه الأجسام كانت واقفة تمشي، أو تقفز، أو تضرب الكرة بأيديها أو بأرجلها. رغم أن هذا ممنوع من طرف شرطة الأخلاق. مسحت عيني بظهر كفي ووقفت ونفضت عن ثيابي وجسدي الرمل الذي غطتني به الريح الخفيفة التي تهبّ عادة على طنجة في أوقات معينة من الصيف. ظللت واقفاً في مكاني. تمططت، ونظرت إلى الشاطئ الواسع الذي يملأه أناس من كل جنس. كانت لغتهم في الغالب الإنجليزية أو العربية. فإما إنجليزي يحاول أن يتحدث العربية، وإما عربي يحاول أن يتحدث الإنجليزية. والعربية، والأنجلو ـ عربية. وعلى كل حال فقد كنت أسمع ثلاث لغات من حولي: الإنجليزية، والعربية، والأنجلو ـ عربية.

كانت الأجسام من كل حجم ولون، تقفز أو تنام، أو تتحرك، أو تضرب الماء بأذرعها متجهة نحو المقافز الخشبية التي تبعد عن الرمل مسافة يسيرة. وفركت عيني لأرى من جديد الصورة الحقيقية لما يدور أمام عيني. شعرت بالصهد يخنقني والثياب ثقيلة فوق جسدي، وتساءلت لماذا لم أستطع أن أستيقظ من النوم رغم هذه الحرارة المفرطة. في الواقع

كنت متعباً إلى حد بعيد. ولم أستطع أن أجمع العزم على الوقوف رغم أني كنت بين النوم واليقظة. ويمكن أني كنت مستيقظاً. مشيت فوق الرمل فوق سان ـ بيتش. قفزت فوق الحاجز الصغير الذي يفصل المقاهي والبيتشات عن الشاطئ حيث الأجساد العارية. ورحت أدور على نفسي أولاً. كانت هناك نساء من جميع الجنسيات وحيدات ومنفردات. أما العربيات فلم يكن يثرن فيَّ أدنى شعور بالرجولة. هذا شيء غير مهم بالنسبة لي لكن مهم بالنسبة للآخر. كنت أعرف، مثلاً، أوروبياً يحلم بالنوم مع عربية مهما كلفه ذلك من ثمن غال. وفي الوقت الذي كان يرغب في ذلك، كان يدفع لي امرأته مباشرة وبل مراوغة. ويقول إنها لم تعد تهمه، وإنها لم تكن تهمه في يوم من الأيام، وإن ما يفعله معها إنما هو مجرد تحقيق رغباتها لا غير. فكيف إذن لا يستطيع أن ينام مع عربية؟ والدار البيضاء واسعة عريضة، تعرض النساء فيها أنفسهن بثمن فنجان قهوة. يكفي فقط أن ترفع إصبعك وتعلن مجيئها. ولست أدري إذا استطاع ذلك الشخص الأوروبي الأشقر أن ينام لحد الآن مع العربية التي يتمناها. أما أنا فقد عرفت نساء من جميع الجنسيات. أما هو فكان خجولاً وكان يحلم بأن تأتي تلك المرأة من قمقم تاريخي في كهف عتيق. أما أنا فلم تكن لدي كهوف عتيقة، بل كانت كهوفي ذات أحجام أخرى.

عندما وصلت إلى سان ـ بيتش، نزعت ثيابي وذهبت

لأجلس هناك فوق كرسي أمام طاولة بيضاء مغروس في وسطها شمسية مخططة مثل جلد الحمار الوحشي. طلبت قهوة سوداء. وعندما مرّ بائع نظارات شاب اشتريت منه نظارتين سوداوين. ذهبت ونظرت في المرآة واخترت نظارتين سوداوين وضعتهما فوق عيني، حتى يظهر لي لون جسدي بنياً، مثمناً، برونزياً، وحتى لا أشمئز من منظر لونه القبيح. وعندما استرخيت فوق الكرسي أمام فنجان القهوة، شعرت بسعادة حقيقية. كانت عدن أمامي جاهزة حاضرة في فنجان القهوة، وفي صحن فنجان القهوة وفي قطعة السكر المتبقية. ورأيت عدن فوق الورقة التي تلف قطعة السكر المتبقية. قرأت على الورقة «قهوة ديبوا».

ثم تحولت الكتابة إلى شيء آخر: «قهوة عدن» ثم «عدن ديبوا» ثم «عدن عدن» ثم «عدن» وأزحت نظارتي ووضعتهما فوق الطاولة أمامي. ومددت يدي إلى الشمسية وحاولت أن أحركها حتى يمتد ظلها إليّ. حاولت عبثاً لأنها كانت مثبتة في الأرض. انضم إلى طاولتي فتى وفتاة، وجلسا قبالتي دون أن يكلم أحدهما الآخر كما لو كانا لا يعرف واحدهما الآخر. لكن الفتى مدّ يده إلى الطاولة أمامه وأخذ الولاعة. ثم انبعثت شعلة حقيقية تحت أنف الفتاة. أخذت تدخن وتتصفح المجلة النسوية. ثم وضعت يدها وراءها وأمسكت بالفوطة، نفضتها وأعادتها إلى مكانها. نظر الفتى في عيني مباشرة ثم أحنى رأسه خجلاً وأشعل لنفسه سيجارة.

قال الفتى:

ـ رجاء.

ـ نعم.

ـ ننزل إلى الماء.

لم ترفع عينيها عن المجلة. ظلّت تقلب صفحاتها.

قالت:

ـ ليس الآن. اطلب لي بيرة وانزل وحدك.

ـ تعالي انزلي معي.

ـ لا.

أخذت تدخن ثم رفعت عينيها عن المجلة. نظرت في عقب السيجارة. ألقته فوق الرمل ودفنته بقدمها ثم عادت للمجلة تنظر فيها دون أن تقرأها. ذهب الفتى وفوطته فوق كتفه نحو الماء. لم ترفع عينيها ولم تهتم به. جاءتها بيرة باردة فتحت ووضعت أمامها فشربت قهوتي التي أخذت تبرد. وضعت سيجارة في فمي وطلبت منها أن تناولني الولاعة ففعلت وهي لا تبتسم ولا تنظر إليّ. أشعلت السيجارة وشكرتها فأتى شاب وطلب أن يجلس بجوارنا. قلت إن المكان غير شاغر. فانصرف ونظرت الفتاة في عيني وأفرغت بيرتها ومدت يدها إلى الشمسية لتحركها فقلت: «إنها مثبتة. حاولت ذلك، ولكنها مثبتة.»

قالت الفتاة:

ـ الحرارة شديدة اليوم. لا أحتمل الحرارة القوية.

ـ أمس كان أخف من اليوم.

قالت نعم برأسها. أخذت أرشف القهوة وأتطلع إلى نهديها اللذين كانا يظهران بوضوح لحماً ودماً. قلت لها:

ـ يبدو أن زوجك يحب الاستحمام.

نظرت في عيني نظرة غريبة شاذة. وقلبت ورقتين بسرعة خفيفة ثم قالت برأسها نعم. ولم تضف شيئاً. رأيت نهديها الجميلين يهتزان وقلت:

ـ يبدو أني رأيت زوجك في مكان ما.

ـ ليس زوجي ولا أي شيء. إنه أخي.

أخذت ترشف البيرة وتحرك رأسها فيقفز شعرها إلى الخلف ثم إلى الأمام. قلت:

ـ يبدو أني أعرفه. وجهه مألوف لدي.

ـ ممكن.

سكتت وقلبت الأوراق. وقفت وذهبت إلى المرآة وقامت بحركات مثل عارضة أزياء. حرّكت رأسها فقفز شعرها إلى الخلف وعادت لتجلس في مكانها. حولت وجهها عني وكأنها لم تكن تهتم بي إطلاقاً. وقفت دون أن أنظر إليها وتوجهت نحو الماء. ألقيت نفسي في البحر وعدت لأتمدد فوق الرمل

الحار. غرست نظارتي في الرمل وتمددت على بطني، واضعاً رأسي فوق ذراعي المتشابكتين واستعذبت أشعة الشمس التي تدغدغ ظهري. سمعت البحر يهدر وصوت ضرب كرة باليد: طف. ثم: طف طف. ثم: طف طف طف. ثم صمت. لا شيء. والو. ثم والوا، أي لا شيء. كان للبحر صوت عميق يهدر في مكان بعيد سحيق. في باطن الأرض وفي الحدود الإسبانية. المهم أن هناك صوتاً عميقاً يميز البحر عن غيره. وهذا الصوت هو رائحة، هو نغمة، هو صورة، هو ما شئت أو أشاء.

هبّت ريح خفيفة وداعبت ظهري ودغدغت ما بين فخذي لكنها لم تستطع أن تخترق المايوه الأحمر. ظللت دافناً رأسي بين ذراعي ولا أرى سوى الظلام الأحمر في داخلي. وفكرت في جورج وألان. هل ينزلان إلى البحر اليوم أو يكونان نائمين في الفندق؟ وخمنت أن احتمال ذلك ممكن الوقوع. هما في الفندق، أو في السوق الداخلي، أو هنا سواء. وإذا لم يكونا هنا أو هناك فإنهما يكونان أين يشاءان. وهذا شيء مهم. وفكرت أيضاً أن أنهض وأذهب إلى الفتاة التي تركتها في البيتش جالسة وحدها. إنه أخوها ولا تعنيه مغامرة أخته. ويمكنها أن تقبلني وهو يشوف أمام الملأ فيضحك ويناكتني مثلما كان يفعل بيير مثلاً. أو على الأقل لماذا لا يكون مثلي. لماذا أمنع أختي من ممارسة شيء تريده؟ وإذن سأذهب إلى البيتش، وسأجلس قرب الفتاة وأحكي لها عن حياتي وأناكتها

وأناكت أخاها. ثم أذهب معها لأنام في فراشها الخاص. وسينام أخوها في فراشه الخاص. ولكن مع من سينام؟ لا بد له من أخرى ينام معها. ثم رفعت رأسي وحدّقت في زحمة الناس العراة وطردت هذه الأفكار المضنية. كنت ممدداً فوق الرمل إذ لم تكن معي فوطة. ورأيت على مقربة مني عجوزاً أوروبياً وقد تمدد قبالتي. عندما وقعت عيناي عليه رأيته يُحدّق إليّ بفضول كبير، فحوّلت نظراتي عنه، لكن الطيبة والبراءة كانتا ترتسمان في عينيه المتقدتين. لم يبق منه سوى العينين المتقدتين. أما الجسم فكان مهترئاً كثوب قديم رث. وعندما التفت من جديد جهته رأيته يبتسم جهتي. التفتّ لأرى إذا كان يبتسم لغيري. لا. لم يكن هناك أحد. نظرت إليه من جديد فابتسم وهزّ لي برأسه. إنه رجل طيب إذن. رفع يده بعلبة السجائر الحمراء وأخرج سيجارة. قلت برأسي نعم. وتلبية لطيبته وقفت وذهبت لأتناول السيجارة. لكنه سبقني بخفة شاب في العشرين ووقف. ناولني السيجارة وأشعلها لي بنفس السرعة.

قلت وأنا أحدق في جسمه المهترئ:

ـ شكراً، أنت طيب.

قال: «أوه.»

ابتعد عني قليلاً فرأيت جسمه المهترئ من جديد. كان ينتظر القبر حقاً. جثة حقيقية حية لكنها ميتة. وقال الرجل بعربية رطنة:

ـ تمشي معايا.

ـ فين؟

ـ في بيتي. تمشي تنعس معايا.

ارتعشت. «أيها العجوز القذر!» لم أستطع أن أنهي السيجارة لأنها كانت مرة. تركتها تذبل في يدي وتنطفئ ببطء. قلت وأنا أنظر إليه:

ـ إنك عجوز معتوه.

ـ تمشي معايا.

ـ . . . . .

وقف كثوب مهترئ رث قديم، أخذ يكرر مثل بيكـ آب عتيق:

ـ تمشي معايا. . .

ـ . . . . .

ـ تمشي تنعس معايا.

ـ . . . . .

ـ تمشي.

ـ . . . . .

ـ تمشي معايا. . تنعس معايا. . في بيتي تنعس معايا.

كانت تلك هي الكلمات التي يحفظها عن ظهر قلب فيما أعتقد. يكررها برطانة ورتابة، وتخرج من فمه الأهتم كما يتكلم ببغاء. وقفت في وجهه ونفضت التراب. قلت:

ـ سر في حالك، أحسن.

وعندما رأى الغضب المتطاير من عيني انصرف وفوطته وعلبة سجائره في يده اليمنى. ذهبت إلى الماء وغطست فيه وفكرت في أن أصل إلى المقافز التي ركبها عدد من السابحين والسابحات. وبالفعل أخذت أضرب الماء بقوة وأناة نحو المقافز. لكني عدلت عن فكرتي إذ تذكرت الفتاة فرجعت إلى البيتش وقررت أن أتحدث إليها بجرأة:

ـ أعاد أخوك؟

ـ عاد بسرعة. لا يستطيع أن يغيب عني طويلاً.

تحدثنا طويلاً وذهبتا الفتاة وأخوها ليتغديا ولم يعودا إلى البحر إلا في الغد، وعندما جلسنا وحيدين وذهب أخوها ليسبح قالت الفتاة التي ألفتني:

ـ هل تدري يا محمد؟

ـ نعم.

ـ إنه يحبني حتى الموت. فمنذ فقدنا أبوينا في حادث طائرة قادمة من السنغال وهو لا يفارقني.

ـ أنتما يتيمان إذن.

ـ ليس تماماً ولكنا نملك ثروة لا بأس بها. وهو ما يزال يتابع دراسته في كلية الآداب.

ـ حتى أنت، أعتقد.

ـ لا . . . أنا غادرت الليسيه لم أهتم بمتابعة الدراسة. المال موفور فلماذا العناء. هل تشرب بيرة؟

ـ نعم. شكراً، جرسون!

بعد صمت طويل:

ـ هل تدري؟

ـ نعم.

ـ إنه يحبني ويغار إذا حدثت رجلاً.

ـ لماذا؟ إنه أخوك وليس خطيبك.

ـ أعرف. لكنه هكذا. كانت أمي تدلله وهو طالب في الكلية. وهو الآن يحبني ويرغب في أن ينام إلى جواري في السرير.

ـ غير معقول.

ـ كل المعقولية. وهو لا يحب سوى شيئين أنا والقراءة.

ـ نعم.

ـ وماذا يقرأ؟

ـ كتباً بالعربية. أما أنا فأقرأ إذا كان لدي وقت، كتباً بالفرنسية. . أقصد روايات.

ـ هل تحبين القراءة كثيراً؟

ـ لا . . إذا كان لدي وقت فقط. أما هو فمعجب بكاتب اسمه نجيب محفوظ أو نجيب معضوض لا أدري. هل تعرفه؟

ـ نعم.

ـ قال إنه يتحدث عن أشخاص يشبهونه لا أدري. هل تريد بيرة أخرى؟

ـ نعم. شكراً. جرسون!

ثم دعوتها إلى النزول إلى الماء فأومأت للجرسون بأننا راجعان. أمسكتها من يدها وغطسنا في الماء ولامست نهديها فارتعشت وقالت: «ـ لنعد. إنه ينتظرنا. وسف يقلق إذا لم نعد.» وعدنا فذهبت أبحث عن جورج وألان في الفندق وكنت لم أرهما منذ ثلاثة أيام. ويبدو أنهما غيّراه دون أن يعلماني بذلك. صعدت الدرجات الحجرية المتآكلة. اجتزت دار السينما القديمة وبناية المسرح القديم. مررت بين زحام الفنادق وتوجهت نحو فندقي المتواضع. ألقيت نظراتي على اللوح وصعدت إلى غرفتي لأستريح من عناء شديد. تمددت فوق السرير بضعف ووهن. أين ألان؟ أين جورج؟ وأخذت أفكر أين يمكنهما أن يكونا الآن. منذ ثلاثة أيام لم أرهما.. قالت السيدة البدينة، صاحبة الفندق، إنهما أخذا ما كان معهما وانصرفا ولا تدري أين. ولم أكن أعرف سبب ذلك. ومن يدري فقد يكونان غيّرا الفندق لسبب أو لآخر. ولكن حتى لو غيَّرا الفندق فإني لا بد أن أعثر عليهما في مقهى فوينتس أو تنخيس أو سينترال بالسوق الداخلي. لكني لم أعثر عليهما ولم ينزلا إلى البلاج للاستحمام. أخذت أفكر وأتخيل أين يمكنهما أن يكونا. لكن لم أجد مكاناً أحسن يمكنهما أن يكونا فيه سوى السوق الداخلي أو البلاج.

تمددت طويلاً فوق السرير القذر. ثم وقفت إلى الصنبور وغسلت وجهي وذراعيّ ويديّ. ونقلت قدميّ وذهبت إلى حوض الصنبور وغسلتهما حتى الركبتين. ثم عدت لأستريح بعد أن نظفتهما من الملوحة التي تخز الجلد. كان عليَّ أن آخذ دوشاً. لكن أين؟ إن هذا الفندق لا يتوفر على دوشات. وعندما صعدت لم تكن «الحاجة» صاحبة الفندق موجودة بالباب. وخرجت وأطللت عليها من فوق لكي أذهب وأسألها عن جورج وألان. لكنها لم تكن هناك. وقلت لحمادي أن يصعد إلي عندما تأتي. وبالفعل عندما كنت ممدداً أفكر في المكان الذي يمكن أن أجد فيه جورج وألان، سمعت طرقات على الباب الذي كان شبه مفتوح فقلت ادخل. ودخل حمادي وقال: «إنهما هنا.» اكتفى بقول ذلك ونزل. وسمعت صوت قدميه وهما تصدمان الدرجات. فوقفت للتو. وذهبت وغسلت وجهي من جديد ومررت عليه بقميصي أنشفه، لأنه لم تكن هناك فوطة. وعندما رأتني الحاجة، قالت وهي تتمايل:

ـ أما تزال تسأل عن صديقيك؟

ـ نعم. نزلت لهذا الغرض. ألم يعودا؟

قالت الحاجة وهي تنادي على حمادي أن يأتيها بمفتاح الغرفة 19:

ـ قلت لك ذهبا ولن يعودا.

ـ ولكنا جئنا معاً.

قال حمادي:

ـ المفتاح ليس عندي إنه عند العايلة وهي تنظف الغرفة.

لم تنتبه الحاجة إليه وإنما وجهت الكلام إلي:

ـ أنا أعرف هؤلاء الأجانب. جئت معهم أو لم تجئ سواء. لا تثق بهم أبداً.

ـ هل سرقا لك شيئاً؟

ـ لا تكن مغروراً يا وليدي. أولئك لا يصادقون أحداً. أعرفهم جيداً. هم ليسوا سوى جماعة من اللصوص. لطالما هربوا دون أن يدفعوا لي ثمن الليالي التي قضوها هنا.

ـ ليسوا جميعاً كذلك.

ـ كلهم كذلك. كل واحد شعره طويل هو لص أو قاتل.

أطرقت وأخذت أنقر على الطاولة أمامي بأصابعي. سكتت الحاجة بدورها، ورأيتها ترفع ثوبها الطويل عن ساقها وتحكه ثم تعيد ثوبها إلى ما كان عليه، قلت لها:

ـ أريد أن أعرف أين ذهب صديقاي؟

ـ ذاك شأنك. أقول ليست معهم صداقة. أولئك المشككون. تصور حتى الفتيات اللائي يكنّ معهم يفعلن نفس الشيء.

قلت:

ـ إنك تتوهمين ذلك؟

قالت بغضب:

ـ كيف أتوهم ذلك؟ أنا أقول لك عن تجربة. إني أملك هذا الفندق منذ خمس عشرة سنة. الفتيات يفعلن نفس الشيء. وعلاوة على ذلك هن مريضات بالزهري. إياك أن تنام مع إحداهن. قلْ لي يا وليدي لماذا تفعل مثلهم وتطلق شعرك أنت أيضاً؟

ـ أمي الحاجة. أنا أسألك عن صديقيّ فقط ولا دخل لك بشأني.

ـ لا تغتظ. أقول لك فقط ابتعد عن هؤلاء. تصور مرة أن واحدة منهن صعدت فوق، وأخذت تنادي على حمادي من تحت بعدما تبوقت من جرّاء الكيف والمعجون. وأصرّت على أن يباشرها من الخلف. هل هي امرأة أم حيوان؟ فحتى أنثى الحيوان لا تباشر من الخلف. وعندما صعد إليها ونام معها أصيب بمرض اضطره إلى العلاج مدة سنة. بل إن الطبيب كان يهدده بقطعه. إنهن مجرد مريضات، أما الآخرون فهم لصوص. لا تبحث عنهما واصعد إلى غرفتك وشوف لك أصدقاء من أبناء عمومتك.

كانت الحاجة تتحدث وأنا صاعد على السلم الحجري القديم إلى الغرفة. لم أرغب في الوقوف أمامها أكثر. لم يكن

يهمني أن أستمع لها لأني أعرف ما أفعل، وأن هدفي هو أن أكتشف حياتي على طريقتي. وظللت بعد ذلك أياماً طويلة أنتظر ألان وجورج لعلهما يخرجان من زاوية في شارع، أو كرسي في مقهى، أو حجر في رصيف. مرّت خمسة، عشرة أيام بالضبط. كانت نقودي القليلة التي أحصل عليها بهذه الطريقة أو تلك قد نفدت. وكنت أحتار ماذا أفعل؟ أين حلم بناء بار في أمريكا اللاتينية؟ أين عدن عدن عدن ن ن ن عدن. . . يا إلهي أين عدن؟ عدن الحقيقية أو عدن الزائفة؟ أين هي أحلامي؟ كيف أشبع جوعي؟

ونزلت ذلك الصباح إلى السوق الداخلي وعوض أن أصرخ «حب، حب، حب» نصبت لي محكمة أخرى صغيرة. كانت جلسة محاسبة فقط. وتخيلت أختي أمامي وهي تناقشني:

هي ـ محمد، أبونا مات.

أنا ـ أعرف جيداً. لكن ماذا تريدين أن أفعل؟

هي ـ ابحث عن عمل. أنت مثقف.

أنا ـ لكن أين أجد هذا العمل؟

هي ـ بأية طريقة.

أنا ـ وأنت؟ ألا تجدينه بأية طريقة؟

هي ـ لكنك رجل.

أنا ـ معنى ذلك أن الرجل يستطيع أن يجد وسيلة للعيش بسهولة.

هي ـ لا أعتقد.

أنا ـ انتظري حتى تتغير الأحوال. ربما صرت كاتباً مشهوراً وأصبحت غنياً.

هي ـ تماماً. فهمت. أمنا وحيدة وعجوز.

أنا ـ أنت ناضجة.

هي ـ أفكار مثل أفكارك تودي بك إلى الجحيم. قم واعمل ودع عنك ما يُسمى بالكتابة.

أنا ـ (بغضب) وأنت هل تعملين؟

هي ـ كيف أعمل. دُلّني عل عمل؟

أنا ـ الوسيلة الوسيلة سهلة. إن لك فر.. فر.. فر.. هل أقولها؟

هي ـ قبل أن تقولها أقول لك بدوري: قم واذهب ابحث عن عمل. الرجال هم الذين يعملون.

وتذكرت عكس الفكرة التي يقول بها جورج. الرجل الحقيقي هو الذي ينبذ العمل بمفهومه عند الناس. وأخذت أرشف الشاي بعد أن اختفت صورة أختي. وجاءت جماعة من «الطيور الغريبة» وحلّقت حولي، وطلبت الشاي وعصير البرتقال. لكل واحد أفكاره عن العالم. وفكرت أن أنهض

على التو، وأن أذهب إلى الفندق وأشتري تذكرة العودة إلى الدار البيضاء، لعلّ ذلك يكون أحسن وأنفع من أوهام مريضة تنتابني. لكن قبل أن أفعل، ذهبت إلى الكشك المقابل لمقهى سينترال واشتريت كارت ـ بوستال وكتبت على ظهره:

«سوز، أحبك وأحب الدانمارك. أنتظر دائماً أن تنقذيني. أحبك. أحبك. أ ح أ. أ. الخ. الخ»

مكتبة الأدب المغربي

محمد زفزاف

المرأة والوردة

صدر للروائي والقاص

محمد زفزاف

عن المركز الثقافي العربي

- روايات -

بيضة الديك

الحي الخلفي

الأفعى والبحر

قبور في الماء

أرصفة وجدران

- قصص -

العربة

الملاك الأبيض

ملك الجن

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)

بيروت: ص.ب: 113/5158

www.ccaedition.com

markaz@wanadoo.net.ma

ISBN 978-9953-68-242-9

9 789953 682426

لوحة الغلاف - ماتيس